licans والألبينيين،والمرابين، وقد بدا للامبراطور أن الاشارة عليه بخطة القيام بمساعدة الأرض المقدسة بحضوره شخصياً، مع مثل جيش الرب الكبير هذا، مشورة فاسدة، لأنه لايجوز أن يترك خلفه مسيحيين مزيفين، كانوا أسوأ من المسلمين، وعلاوة على ذلك كان عجب الامبراطور بلا حدود، من أن يقوم البابا بتقديم الحظوة للميلانيين بأي شكل من الأشكال، أو أن يظهر بحال من الأحوال مقدماً الحماية إليهم، وبما أنه بدا بالنسبة إليه أنه أصبح ليس أباً للأتقياء بل عصا للأشقياء، قام الامبراطور بلطف وحكمة، وتعامل مع مثل ذلك الأب المقدس لأنه بابا فرد عليه كمايلي:

جواب الامبراطور إلى البابا

«إيطاليا هي ميراثي، وهذا معروف من قبل كل الدنيا، وأن أطمع بممتلكات الآخرين، وأن أهمل ممتلكاتي، فذلك معناه إثم وذنب عظيم من قبلي، مثلما يفعل الايطاليون بشكل خاص، ولاسيما أهل ميلان، فهؤلاء قد أثاروني، وليس لديهم احترام مناسب لي، بأي طريقة من الطرق، علاوة على ذلك أنا مسيحي، وإنني وإن كنتُ عبداً حقيراً للمسيح، انني مستعد لاخضاع أعداء الصليب، وبما أن كثيراً من الهرطقات، لم تتفجر فقط في ايطاليا، بل نمت وغلظ أمرها، وبدأ السوس يخنق القمح، في جميع مدن ايطاليا، وخاصة في ميلان، لذلك بات أن تزحف لاخضاع المسلمين وأن تبقي هؤلاء من دون عقوبة، كمن يمسح الجرح، حيث دخل الفولاذ محدثاً ضرراً بليغاً، كما أن ذلك يعني احداث ندبة بشعة، وليس المعالجة، ومجدداً إنني وحدي، وأنا بشر ولهذا لست قادراً على القيام بمثل هذه المهمة العظيمة، التي هي اخضاع أعداء الصليب وذلك من دون قوة كبيرة لتساعدني، لأن أعدادهم كبيرة جداً وهم أيضاً أقوياء، ومرة ثانية، أنا وحدي ليست لدي الكفاية للقيام بأعباء مثل هذه القضية المرهقة، من دون كميات ضخمة من المال، ولقد قررت استخدام ثروة المنطقة المذكورة من

أجل تقديم العون إلى المصلوب، والانتقام له، لأن إيطاليا مليئة بالسلاح، والثروات، كما يعرف جميع العالم».

الامبراطور يزحف في إيطاليا للاستيلاء على ميلان

ولدى سماع البابا هذه المناقشة المنطقية العميقة، ولكي لايبدو أنه معارض في هذه المناقشات الجدلية، تظاهر بإعطاء موافقته، وأن بإمكان الامبراطور عبور الجبال والدخول إلى إيطاليا وفقاً لغرضه، وقد وعد قداسته —من دون تراجع، وبقدر مايستطيع أن يقدم له مساعدته الأبوية في كل أمر ضروري، وتشجع الامبراطور بهذا، فجمع بموجب مرسوم امبراطوري جميع القوات التي كان يمكنه حشدها، ودخل إلى ايطاليا، تتبعه كتلة كبيرة من العساكر، وشعر الميلانيون بالخوف —وحق لهم أن يخافوا— من غضبه المرعب، فبعثوا إلى البابا يطلبون نصيحته، والمساعدة الفعالة منه، وبعدما تسلم البابا منهم مبلغاً كبيراً من المال مع وعد بالمزيد، أرسل إليهم كثيراً من التفريج والمساعدة، مما شكل ايذاءاً للامبراطور، وبدا هذا أمراً لايصدق، ومعاكساً لموقف كل انسان، وعجبوا أنه في وقت الحاجة تحول الأب إلى عراب، ثم خرج سكان ميلان منها، وزحفوا من مدينتهم في قوة كبيرة، وصل تعدادها إلى نحو خمسين ألف رجل مسلح، وساروا ومعهم علمهم —الذي سموه Carruca أو Canochium للتصدي للامبراطور، وأرسلوا إليه رسالة، بأنهم كانوا جاهزين لمقاتلته، ووصل في هذه الآونة فارس من انكلترا اسمه بلدوين دي فيري Vere أرسله ملك انكلترا إلى الامبراطور ليعدّ لبعض الأعمال السرية المتعلقة بالملك المذكور والامبراطور، وحول هذه القضايا أعطى فيها بعد إلى مستمعيه معلومات كاملة.

وعندما سمع الامبراطور بأن الميلانيين قد خرجوا بمثل تلك الوقاحة للقتال ضده، قدّر على الفور بأنهم شعروا بهذه الجرأة اعتماداً على مساعدة آخرين، وليس اعتماداً على أنفسهم، وبعدما جرى تقدير القضية في مؤتمر

مع نبلائه، جرى الاتفاق مع التهليل من قبل الذين كانوا حضوراً من جانب الامبراطور، من العالي إلى الداني، على وجوب حمل السلاح من دون تأخير لمحاربة هؤلاء الغوغاء الميلانيين، الذين تجرأوا مثل جرذان خرجوا من جحورهم، لإثارة مولاهم ودعوته إلى الحرب مع محاولة تجريب منازلة قوتهم مع القوى الامبراطورية، وعندما علم الميلانيون بهذا القرار، توقفوا قليلاً، وقام واحد من شيوخ المدينة، الذي اعتمد على رأيه الجميع ليتكلم، فتحلق الآخرون من حوله، فخاطبهم قائلاً:

«أصغوا إليّ، ياأهل المدينة النبلاء، إن الامبراطور على مقربة منا في قوة كبيرة ومع جيش عظيم، وهو، كما هو معلوم لدى العالم أجمع، مولانا، وإنه إذا ماحدث هذا الصراع المؤلم، سوف يصدر عنه ضرر لايمكن ترميمه، لأننا إذا ما كنا المنتصرين في الصراع، فلسوف ننال الملامة مع نصر دموي على مولانا، لكن إذا ماغلبنا نحن، فلسوف يدمر اسمنا وسمعتنا، واسم شعبنا وسمعة مدينتنا إلى الأبد، ولسوف نكون مهانين بين جميع الشعوب، وبما أنه من جميع الجوانب أمر مهين وخطير أن نزحف مسافة أطول بطريقة عدوانية، أرى إنها خطة حكيمة في أن نعود إلى مدينتنا، حيث أنه إذا مااختار الهجوم علينا، فلسوف يكون أمراً شرعياً بالنسبة لنا، أن نصد القوة بالقوة، وسواء أسمح لنا باقامة سلام معه، أو أرغمنا بالخروج من ديارنا بالقوة، سوف تكون مدينتنا مصانة وسوف يبقى اسمنا الجيد وسمعتنا الطيبة دونما تشويه»، وقبل جميع البقية بهذه الخطة، وعملوا بموجبها، وكان ذلك مشهداً باعثاً على السرور للامبراطور، ودون أن يظهر من جانبه خوف أو رعب، قام بمطاردة المنسحبين، واستعد للحصار، وأثناء وقوع هذه الأحداث أثيرت خلافات في المقاطعات الرومانية، إما بوساطة تآمر الكنيسة الرومانية أو بوساطة أعداء الامبراطور، وتولى ذلك دوق النمسا، وفي سبيل القضاء على هذه الخلافات الداخلية جرى ارسال رسائل ورسل بكل سرعة إلى الامبراطور تشرح له الوضع المنذر الجديد، وتستدعيه

للعودة على الفور، ولذلك رفع الامبراطور الحصار، الذي كان قد أعدّ له، وعاد إلى ألمانيا، ولدى سماع سكان ميلان بهذا، استولوا بالقوة على بعض القلاع التي كان الامبراطور قد استولى عليها، وأسروا حاميات هذه القلاع، ثم أعدموا جميع الفرسان والجنود التابعين للامبراطور، وعندما سمع الامبراطور بذلك، غضب غضباً عظيماً، وحق له أن يغضب، ولذلك صبّ جام غضبه المشروع على مقترف هذا الاثم، وعاقب دوق النمسا بحرمانه من جميع مراتبه، وأراضيه، وقلاعه، ومدنه، وبصعوبة بالغة أبقى على حياته ومنحه إياها، وعلى هذا بدا أن الانتقام الذي نزل به الآن عادلاً بسبب الجريمة التي اقترفت من قبله ضد الملك رتشارد أثناء عودته من الأرض المقدسة، ومع ذلك بدت حتى في هذا الوقت غير كافية، كما يقول النبي:

«الرب ينتقم بشدة من الأشرار وإن جاء ذلك متأخراً» و«يلاحق الأبناء بجرائم الآباء حتى الجيل الثالث، والرابع».

وفي هذا العام، في حوالي أيام عيد القديس ميكائيل، عاد بلدوين دي فيري إلى انكلترا، وكان رجلاً مستقيماً، ومخلصاً، وفصيحاً، وجلب جواب الامبراطور إلى الملك، وقدم رواية كاملة حول جميع هذه القضايا، إلى كل من اختار الاصغاء إليه.

وفي تلك الآونة أيضاً، عاد بطرس، أسقف وينكستر، من القارة، وهو محروم من جميع قواه الجسدية بسبب المرض، وقريباً من ذلك الوقت أيضاً، وبالتحديد في يوم الاثنين التالي لذلك العيد، نزلت أمطار ثقيلة في الأجزاء الشمالية من انكلترا، إلى درجة أن الأنهار والبحيرات فاضت فوق حدودها المعتادة، وسببت كثيراً من الدمار، بتدمير الجسور، والطواحين، والممتلكات الأخرى على مقربة من الشواطىء.

ومات في العام نفسه، في السادس عشر من آب، توماس دي بلندفيل

Blundeville أسقف أوف نورويك، ومات في حوالي الوقت نفسه وليم أوف بلي Bleis أسقف ووركستر، وهنري دي سانـدفورد أسقف أوف روكستر، ومـات أيضـاً تومـاس راعي دير ايفهـام Evesham في هذا العام، وخلفه رتشارد رئيس رهبان هيرل Hurle.

عواصف ريح عنيفة وفيضانات مدمرة

في اليوم التالي لعيد القديس مارتن، وفي ثمانية ذلك العيد، حدث هيجان كبير للبحـر بشكل مفاجـىء في الليل، وهبت ريح عاصفـة عنيفـة، سببت فيضـانات للأنهار، وكـذلك للبحـار، وفي بعض الأمـاكـن، خـاصـة على السـاحل، ساقـت السفن وأبعدتها عن مـوانئهـا، وفصلتهـا عن مراسيهـا، وأغرقت عـدداً كبيراً من الناس، وأهلكت قطعاناً من الأغنام، وأسراباً من الماشيـة، واقتلعـت الأشجـار من جـذورها، ورمت البيـوت وهـدمتهـا، وأفسـدت السواحل، وارتفع البحـر لمدة يومين وليلة بينهما، وهذا حـال لم يسمع بمثله من قبل، ولم يعرف البحـر المدّ والجزر كما هو معتاد، بسبب أنه أرغم «كما قيل» بقـوة الريح المعـاكسة، وشـوهدت أجسـاد الذين غرقـوا، وهي مـرمية غير مـدفونة، في كهـوف تشكلت بوساطة البحـر، وعلى طول السـاحل وعلى مقـربـة منه، وعند وسبيتش Wisbeach والقـــرى المجاورة، كانت هناك أعـداد لانهاية لها من المخلوقات البشرية قد هلكت، وفي إحـدى البلدات، ولم تكن مكتظة السكان، عهد بحـوالي مـائة جثـة إلى القبور، في يوم واحد، وفي ليلة أمسية عيد الميـلاد، ثارت أيضاً عاصفة ريح قوية جداً، صـاحبتها رعود، وأمطار غزيرة جـداً، وقد هزت الأبراج وبقية الأبنيـة، وحـولت اضطرابات الأنواء الطـرقـات والبحـار، إلى مـواضع لايمكن عبـورها، وهكذا في هذا العام، في أيـام موسم الاعتـدالات تولت الرياح مـرتان متكررتان اجتياح انكلترا، محدثة أضراراً لايمكن تعـويضها، وفي الحقيقـة، يبـدو أن الرب، قـد أرسل —بسبب ذنـوب العبـاد— هذا الطوفان، كسـوط عذاب إلى الأرض، ولينفذ التهـديد الموجود في الانجيل

قوله:

«سوف يكون فوق الأرض عذاب للأمم، مع ارباك، وسوف يزمجر البحر مع الأمواج».

ملك انكلترا يستخرج ضريبة جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في جميع أرجاء المملكة

في عام ١٢٣٧ لتجسيد ربنا، الذي كان هو العام العشرين لحكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، ومن هناك بعث بمذكرات إلى جميع أرجاء المقاطعات الانكليزية، أمرفيها جميع النبلاء العائدين لمملكة انكلترا، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، والايرلات، والبارونات، أمرهم جميعاً بالاجتماع من دون عذر أو تخلف، في ثمانية عيد الغطاس في لندن، لتدبير الشؤون الملكية، والقضايا المتعلقة بالمملكة كلها، ولدى سماع النبلاء هذا، أطاعوا على الفور دعوة الملك، وبناء عليه، في يوم عيد القديسة هيلاري، قدمت حشود لاعدّ لها ولاحصر، أي كل جماعة نبلاء المملكة، إلى لندن، وتوجهوا نحو القصر الملكي في ويستمنستر للاستماع إلى رغبات الملك، وبعدما أخذ الجميع مقاعدهم، وقف هناك في وسطهم واحد اسمه وليم كيل Kaele وكان مقرباً من الملك، ورجلاً مستقيماً، وبارعاً بشرائع الأرض، وقد عمل بمثابة وسيط بين الملك والنبلاء، وقد أباح لهم برغبة الملك وبنواياه، حيث قال:

«مولاي الملك يود اخباركم أنه مهما كان الذي عمله حتى الآن، إنه منذ الآن فصاعداً، سوف يقوم من دون تردد، باخضاع نفسه إلى نصيحتكم جميعاً، بحكم كونكم رعاياه الطبيعيين والمخلصين، واعلموا أن الذين تولوا حتى الآن إدارة شؤونه، وكانوا مسؤولين عن خزينته، قد قدموا إليه حسابات غير صحيحة عن الأموال التي تسلموها، ونتيجة لذلك إن الملك

لا مـال لديه الآن، ومن دون المال، في الحقيقـة الملك مهجـور كئيب، وبناء عليـه إنه بكل تواضع يطلب مسـاعدة منكم بـالمال، على أساس تفـاهـم أن المال الذي يمكن أن يجمع بوساطة ارادتكم الطيبة، سوف يجري الاحتفاظ به، حتى يصرف في سبيـل الحاجـات الضرورية للمملكة، تحت الاشراف الرشيـد لأي واحـد منكـم تختـارونه لهذه الغـايـة»، ولدى سماع النبـلاء المجتمعين لهذا الكلام، كـانوا جميعـاً غير متـوقعين أي شيء من هذا القبيل فتمتموا منزعجين بشكل كبير، ورددوا:

[ضاع كل مستمع في دهشة رهيبة

والتفت إلى وجه جاره محدقاً]

وقال كل واحد منهم للآخر:

[هزت الجبال في مخاضها الأرض

فولدت فأراً حقيراً].

ثم إنهم ردوا مغضبين، بأنهم ظلمـوا وضغط عليهـم من كل جـانب، وغالبـاً ماوعـدوا، وكانوا الآن جـزئاً من عشرين، ثم بعـد ذلك جزئـاً من ثلاثة عشر، وبعـد ذلك جـزئاً من خمسـة عشر، من أمـلاكهم، وأعلنوا بأنه سـوف يكـون مسيئاً إليهم، ومضراً بهم، السماح بمثل هذه السهـولة أن يضلل الملك، الذي لم يقم بصـدّ واحـد من أعـداء المملكة، أو بإخـافـة أي واحـد منهم حتى وإن كـان الأدنـى بينهم، والذي لم يستطع قـط زيادة أراضيـه، بـل إنه بالحري أنقصهـا، ووضعهـا تحت نير الحكم الأجنبي، لاستخـراج المزيد المزيـد من المال، وذلك بالغـالـب، وبوسـاطة الكثير من الحجج، من رعاياه الطبيعيين، وكـأنهم عبيد، أو من أدنى الحالات، وذلك في سبيل ايذائهم، ومنفعـة الأجـانب، وعنـدمـا سمع الملك هذا، رغب في تهدئة عدم الرضـا العام ووعد مقسماً أنه سوف لن يقـوم ثانية بإثارة النبلاء أو اغضـاب أعيان المملكة، عن طريق الحاق الأذى بهم وفق هذه الطريقـة،

على شرط أن يدفعوا له جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في انكلترا، وأن يقدم هذا الجزء الآن إليه من أجل الاستخدام الحالي، لأن المبلغ الكبير من المال الذي كان لديه قبل وقت قليل، قد أرسله إلى الامبراطور —كما ذكر— من أجل زواج أخته، وكان أيضاً الذي أنفقه أثناء زواجه هو، قد أنهك إلى حد كبير امكاناته المالية.

وعلى هذا ردوا بكل صراحة، بأن الملك قد فعل هذا كله، من دون نصيحة رعيته التابعة له، وهكذا ينبغي عدم مشاركتهم بالعقوبة، لأنهم أبرياء، ولاعلاقة لهم بالجريمة، ثم إنهم انسحبوا إلى مكان خاص للتشاور حول إطاعة طلب الملك، ولتزويده بما هو محتاج إليه، ولمناقشة نوع وكمية المساعدة التي طلبها، وفي الوقت الذي كانوا فيه منعزلين من أجل هذا الغرض، قال غيلبرت باسيت للملك على مسمع من الجميع، وبحذر أقل مما ينبغي أن يفعله في كلامه:

«مولاي الملك، أرسل واحداً من رفاقك ليكون حاضراً أثناء مؤتمر بnaroناتك»، وعندما قال هذا كان جالساً على الجانب الأول من الملك، مع عدد صغير من الأشخاص بينهما، وفي رد على هذا الكلام قال رتشارد بيرسي، الذي كان موجوداً في مؤتمر النبلاء، ولم يكن يفتقد إلى المسوغ لغضبه: «ماالذي قلته، ياصديق غيلبرت؟ هل نحن أيضاً أجانب، ولسنا معدودين وسط أصدقاء الملك؟» وشعر غيلبرت بالملامة بوساطة هذا الكلام غير الطيب والمفاجىء، وهكذا امتد المؤتمر بوساطة مناقشات متراكمة لمدة أربعة أيام.

الشروط التي على أساسها جرى منح الملك جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة

وكان الملك خائفاً جداً، ورغبة منه في الحصول على المشاعر الطيبة للبارونات، وعلى المصالحة معهم أخضع نفسه منذ ذلك الوقت فصاعداً،

لنصيحـة أتباعـه ورعاياه الطبيعيين، وذلك على عكس مـاكان قـد فعل من قبل، عـلاوة على ذلك، بـالنسبـة إلى التقـرير الذي أفـاد، بـأنه كـان يسعى بوسـاطة ترخيص حصل عليه من البـابا إلى إلغـاء المنح التي أعطاهم إياها من قبل، وأكدها بوسـاطة صك، بالنسبة لهذا، قـال الملك إنه زيف، وإذا ما كان شيئاً مـن هذا القبيل قد اقترح إليه، فقـد أعلن أن ذلك بلا فعـالية وأنه هو شخصياً قد تخلى كلياً عن مثل هـذا الهدف، وإلى جانب هذا قام بملامح هادئة، وبمبـادرة منه شخصياً، فوعـد أنه منذ ذلك الوقت فصاعـداً سوف يرعى من دون عـذر أو تردد امتيـازات الصك العظيم، نحـو جميع رعـاياه التـابعين له في مملكته، ولأنه بدا أنه غير متحـرر تماماً من قـرار الحكم الذي تفوه به رئيس الأساقفة ستيفن مع جميع أساقفة انكلترا، ضد جميع الخارقين للصك المتقـدم ذكره، وهو الصـك الذي قام هو شخصياً بخـرقه إلى حـد بعيد، لهذا كله أمر بنشر قرار الحكم المذكور، وبتجديده ضد جميع المخالفين للصك المذكور والخارقين له، ولذلك بات هو نفسه لايمكنه من خلال أي حقد أو تفكير شرير، القيام —ولو صدفة— بخـرقه، لأنه لو فعل وخرقه، سـوف يصبح أكثر تورطاً، وتحت طائلـة ذلك القرار، ونتيجـة لعمله هذا، وبوسـاطة كلماته تمكن من ارضـاء قلوب المستمعين إليـه، وتصالحهم معـه شخصياً، وتقرر أيضاً أنه سيكون عملاً قاسياً جداً وخشناً، الاقدام في ذلك الحين على عزل مستشـاري الملك، مهما كانوا أشراراً، ولهذا متنوا أعـدادهم بإضافة بعض النبلاء الآخرين، ولذلك عينوا وأضافوا: ايرل وارني، ووليم فيرار، وجـون فتـز— غيـوفـري، وكما فعل الملك من قبـل في ويندسـور، جعلهم يقسمون أنهم سوف لن يحيـدوا عن طريق الصدق، بأية وسيلة من الوسائل أو بالهدايا أو بأي شكل من الأشكال، بل سوف يقدمون إلى الملك نصيحـة جيدة، وكـل ماهو لمصلحـة المملكة، وعلى أسـاس هذه الشروط، جرى منح جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في المملكة، إلى الملك، لإعـادة تزويد خـزينتـه، باستثناء أنه أبقى —على كل حـال— لكل واحـد، فضتـه وذهبـه، وخيـوله وأسلحتـه، التي سـوف تكرس في سبيل

الصالح العام، وكان سوف يجري جمع الجزء من الثلاثة عشر جزئاً، في أرجاء كل كونتية وفق الطريقة التالية، وحسب الشكل التالي:

سوف يجري اختيار أربعة فرسان موثوقين، إلى جانب كاهن واحد، سوف يجري تعيينه من قبل الملك، وسيقوم هؤلاء الفرسان مع الكاهن بتأدية قسم بالتابعية للملك، وأنهم سوف يتولون جمع المال، وسيضعون هذا المال بعد جمعه في أحد الديرة، أو في بيت مقدس، أو قلعة، وبذلك إذا ماسعى الملك إلى التراجع عن وعوده، سوف تعاد ممتلكات كل انسان إليه، وسوف يجري توزيع صحيح، وكان أول من وافق على هذا رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفته، وكهنته، وعلى شرط أن الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة في المملكة، قد منح إلى الملك، وأن يجمع من جميع أرجاء المملكة بشكل عام، أي من كل أسقف وفارس تبعاً لاقطاعية بارونيته، وغالباً ماأضيف إلى الشروط، شرط أن يقوم الملك وقتذاك، ومن ذلك الوقت فصاعداً، برفض نصيحة الأجانب —الذين كانوا دوماً أصدقاء لأنفسهم، وليس للمملكة، وبددوا الثروات بشكل عام بدلاً من زيادتها— وكذلك برفض النصائح غير الطبيعية، وأن يلتزم بنصائح أتباعه ورعاياه الطبيعيين، وعندها ارفض الاجتماع، وانتهى المؤتمر، ولكن ليس قبل كثير من الغضب السري، وإثارة لعدم الرضا، لأنه بصعوبة كبيرة أمكنهم تحويل عقل الملك للأخذ برأيهم السليم، واقناعه بمسايرة نصيحة الذين منهم استحوذ على جميع مراتبه الأرضية، وعاد كل واحد إلى بلده وداره.

انتصارات المسيحيين في اسبانيا

جرى في العام نفسه، تكريس الكنائس والأساقفة في قرطبة، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، التي جرى الاستيلاء عليها —كما ذكرنا من قبل— يوم الثلاثاء من اسبوع الفصح، وقد ذكر لوكان Lucan بأنه قد ولد في تلك المدينة، وهو الذي قال:

«أعطتني قرطبة ميلادي»، وجرى الاستيلاء عليها من قبل ألفونسو الملك المسيحي العظيم لقشتالة، ولدى استسلامها للمسيحيين، تراكم السرور فوق السرور، وكذلك بالاستيلاء على جزيرة مايوركا الاسلامية الغنية، التي كانت مليئة بالقراصنة، وقطاع الطرق، وكانت بشكل خاص مضرة جداً إلى التجار والحجاج الذي يسافرون بحراً بين بلدان أفريقيا واسبانيا، وتحتوي هذه الجزيرة على اثنتين وثلاثين قلعة، ولزيادة سرورنا جرى الاستيلاء في السنة المنصرمة على مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة من قبل ملك أراغون، وبذلك تمكن بوساطة البراعة المتناهية من انجاز ماكان من غير الممكن انجازه بوساطة القوة، وهكذا أمكن خلال عامين الاستيلاء على مدينة قرطبة، وعلى جزيرة مايوركا، وعلى مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة، ومنحت هذه الأماكن كلها وتم التخلي عنها لصالح السلطات المسيحية في اسبانيا، ووضعت تحت سلطة الرب وتشريفاً لكنيسته المقدسة، وبناء عليه استعد شعبنا في ظل مؤشرات سعيدة لمهاجمة بلنسية، التي كانت أيضاً مدينة أخرى واسعة ومشهورة في اسبانيا، وبحكم محافظتكم على شجاعتكم وعلى آمالكم الطيبة، مع تذكر الأحداث الماضية، باتت مدينة سبته تخشى أيضاً سقوطاً مماثلاً.

للويلين يسأل ملك انكلترا تأكيد معاهدتها

أرسل في هذا العام للويلين أمير ويلز، رسالة إلى الملك، حملها رسل خاصين، جاء فيها أن وقت حياته الحالية يتطلب منذ ذلك الوقت فصاعداً، التخلي عن كل الصراعات، وخوض غمار الحروب، وأنه ينبغي من أجل المستقبل التمتع بالهدوء والسلام، ولذلك قرر وضع نفسه وجميع ممتلكاته تحت سلطاته وحمايته، أي تحت الملك الانكليزي، ولسوف يستحوذ جميع أراضيه منه بكل اخلاص وصداقة وسوف يدخل معه بمعاهدة لايمكن إلغاؤها، وإذا ماكان الملك زاحفاً في أية حملة عسكرية، هو سيبذل غاية طاقته، كتابع ورعية له، لرفع شأن الحملة، بمساعدته بالعساكر،

والأسلحة، والخيـول، والمال، وفي سبيل تأكيد هـذه المعاهدة، وتصـديقها، جرى ارسـال أسقفي هيرفورد، وشيستر، بمثـابة وسيطين للعمل على إنهاء مسألة المعاهدة المذكورة.

وقد قيل بأن سبب هذه المعاهدة، قد كان بسبب الشلل الذي أصيب به، فكان شخصياً غير قـادر على التصدي للحملات الشديدة التي شنهـا عليه ابنه غريفين Griffin والحرب التي كان قد أعلنهـا عليه، ووافق كثير من نبـلاء ويلز على هذه المعـاهدة، وثبتوها في الوقت الـذي ثبتها فيـه للويلين، وعـارض بعضهم بشـدة اتفـاقـاتهم، هـذا ويحتـاج اخـلاص الويلزيين إلى اخـلاص، وهم لايظهـرون رحمة عندمـا يمتلكون الحظ بأيديهم، وعندمـا يكون السعد صديقاً لهم، يقـومون بتعذيب الذين يقعون بين أيديهم،ولكن عندما ينهـزمون، إما يفـرون، أو يذلون أنفسهـم، ومثل هؤلاء الأشخاص، لايمكن مطلقاً الوثوق بهم، لأن الشاعر يقول:

«إنني أخـاف مـن الإغـريق، حتى عندمـا يجلبـون هدايا»، وقـد قـال الفيلسوف سينكا أيضاً: «لايمكنك عمل أية معاهدة مع أي عدو».

زواج رتشارد ايرل غلوستر

وفي تلك الآونة نفسهـــا، اشتعل غضب الملك مجدداً ضــد ايرل كنت هيـوبرت دي بورغ، بسبب أن رتشارد ايـرل أوف غلوستر، وكان مـايزال صبياً، تحت رعاية الملك، قد تزوج سراً من مـرغريت ابنة الايرل هيوبرت، من دون اذن الملك، أو موافقتـه، لأنه كان قد قـرر —كما روي— أن يوحد الشاب المذكور، أي ايرل غلوستر، مع كونتيته، ومراتبه، ومع الفتاة الشابة، وبقـرابة قـريبـة، مع وليم الأسقف المنتخب لبلنسيـة، الذي كـان من أهالي بروفـانـس، وأمكن أخيراً تهدئـة غضب الملك، بوسـاطة كثير من الناس، وكذلك بناء على إعلان هيـوبرت أنه لم يكن واعياً للأمر، وأن ذلك لم يفعل من قبله، يضاف إلى هذا وعد الملك بمبلغ من المال.

وفي العام نفسه، تمّ بتدبير من الامبراطور فردريك ايجاد سيناتور [شيخ] جديد في روما، في سبيل أنه بوساطة براعة وسلطة اثنين من الشيوخ متحدين، من الممكن ضبط صلف الرومان، وبذلك تصبح المدينة أكثر سلاماً، ومن ثم يجري حكمها بأمان أعظم، وبسهولة أكبر من قبل مستشاريها.

صلف الاغريق نحو الكنيسة الرومانية ونحو امبراطورهم

وتفجر في هذه الآونة صلف الاغريق المعتاد، بالشكل المجنون، نحو الكنيسة الرومانية، ونحو مولاهم امبراطور القسطنطينية، وبذلك نالوا سخط البابا والكنيسة كلها، حتى بات الرأي، وتوفرت الرغبة في ارسال جيش الصليبيين ضدهم، لأن الامبراطور، قام حتى يتجنب غضبهم بالمغادرة إلى البلدان الغربية، ليطلب النصيحة والمساعدة من الكنيسة الرومانية.

البابا يستدعي كونت بريتاني إلى مجلسه

واستدعى البابا في هذه الآونة كونت بريتاني إلى مجلسه، مما أثار دهشة الكثيرين، حيث استغربوا اقدامه على استدعاء رجل مشهور جداً بأعماله الخيانية المزدوجة، ليتولى ادارة شؤونه الصعبة، لكن تبين أنه اختار ذلك الكونت وانتخبه دون سواه، لأنه كان رجلاً بارعاً جداً في فن الحرب، شجاعاً في القتال، ومن أسرة مشهورة، وهو انسان قد نال تجربة من خلال صراعات متوالية بالبحر والبر، ليعهد إليه بقيادة وإمرة الجيش الصليبي، وليضع تحت تصرفه المال لانفاقه في سبيل الاعدادات الضرورية من أجل زحف الصليبيين.

سقوط أمطار غزيرة وتدفقها

ومع اقتراب موعد حلول شهر آذار، وبالتحديد في يوم عيد القديس فالنتاين، عمت عواصف ثقيلة من المطر، وغمرت البلاد، وبتدميرها

لضفاف الأنهار، جعلت المخاضات والطرقات غير ممكنة العبور لمدة ثمانية أيام متوالية، ومما يماثل ماحدث، من الممكن تصور حالات أخرى مشابهة، أي أن يقوم نهر التيمس في انكلترا، والسين في فرنسا، أثناء فيضانيهما بإزالة المدن، والجسور، والطواحين، وأن تنبع البحيرات في الأماكن الجافة من قبل، وتنتشر فوق امتدادات واسعة من البلاد، وإذا حدث ذلك سيكون خلال خمسة عشر يوماً، نتيجة للطوفان، من الصعب جداً، تمييز الطرقات على الضفاف.

وليم الأسقف المنتخب لبلنسية يغادر انكلترا لكنه مالبث أن عاد

ورأى في هذه الآونة، وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي إليه عهد الملك كلية بمقاليد الحكومة ان النبلاء قد شعروا نحوه —ليس من دون سبب— بغضب عظيم ضده، ولذلك قرر المغادرة إلى بلاده، وعهد بأراضيه، وبمزارعه الغنية التي أعطاه الملك إياها، إلى هرون، ووضعها بين يديه، وكان يهودياً من يورك، على شكل رهينة، وتسلم منه، عن طريق الدين، تسعمائة مارك من النقود الاستيرلينية الجديدة، وحمل ذلك بيديه، ثم إنه وجه خطاه نحو دوفر، تحت أمان الملك، وعلى ظهور دواب التحميل أوعية مليئة بالذهب والفضة، وهدايا ملكية متنوعة، إلى جانب بعض الخيول الاسبانية القصيرة المرغوبة، وخيول عليها سرج ثمينة، وهكذا تمكن هذا الرجل بمكر وببراعة من تدبر الأمور، حتى أن الملك تخلى عن المثل الذي ضرب له من قبل الامبراطور النبيل، وملك فرنسا الحريص، اللذان لم يسمحا لظهريهما بأن يداس عليهما من قبل زوجتيهما ومن قبل أقربائهما وأبناء بلديهما، فحرم من جميع أمواله، ومن كل ماالديه، فأصبح رجلاً محتاجاً، وسمح لهذا الأسقف أن يمزق مملكته إلى مزق، وبما أنه كان تحت نفوذ زوجته، سمح له، وفقاً لأوهى الحجج بالتهام نتاج أراضيه الخاصة، كما أنه سمح للأجانب من: بواتيين، وألمان، وبروفانسيين، وورومان، أن يسمنوا على الأشياء الطيبة في بلاده، وبإيذاء مملكته.

وذهب آنذاك أسقف بلنسية المنتخب المتقدم ذكره، إلى فرنسا، وبعدما قدم هناك احتراماته إلى الملك وإلى أخته، قام من دون تأخير بالانطلاق مسافراً بسلام، وسمح له بالمغادرة من دون أية هدايا، ثم إنه أرسل الهدايا التي جلبها معه من انكلترا إلى بروفانس، وهناك وزعهم مع بعض الخيول المحملة بمبالغ كبيرة جداً من المال، ثم إنه عاد خالي الوفاض إلى انكلترا، حيث استقبل بذراعين مفتوحين، من قبل الملك.

انتخاب وولتر كانتلوب وجون رئيس رهبان نورويك

بعدما غادر أسقفا ووركستر ونورويك الطيبا الذكرى الحياة، انتخب رهبان ووركستر المعلم وولتر دي كانتلوب Cantelupe ابن وليم دي كانتلوب، القوي والواسع الشهرة، انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وقد قبله البابا من دون أية مصاعب، وكرسه أسقفاً، وانتخب رهبان نورويك رئيسهم، وكان رجلاً متديناً ومستقيماً، واختاروه ليكون رئيسهم، لكن هذا الانتخاب مع أنه عمل بشكل صحيح، لم يرض الملك، وبسبب أعذار مضحكة، واعتراضات بعض الذين وقفوا ضدها، بقي لمدة طويلة محروماً من التكريس، لكن ليس من دون بعض الشكوك التي صدرت عن أخطاء مرتاب بها.

الأوضاع التعيسة لانكلترا

أثناء هذا الوقت كله، أخذت بقية حرارة الإيمان الصحيح بالموت والتلاشي، وتحولت بقايا نارها إلى رماد، وبدت وكأنها لم يعد فيها بصيص شرارة واحدة، لأن السيمونية كانت الآن تمارس من دون خجل، والربا بشكل مكشوف، واستخرجت الأموال من الشعب ومن الصغار بمختلف الحجج، وزالت الصدقات، وسحق كرم الكنيسة، وديس على الدين، وبات بدون قيمة، وباتت ابنة صهيون، كما كانت دوماً، من دون حياء، وعاهرة من دون خجل، وأقدم رجال أميون من الطبقة الدنيا، وهم

مسلحون بالمراسيم من الكنيسة الرومانية، واندفعوا متقدمين مع التهديد، واستأنفوا يومياً، على الرغم من الامتيازات المقدسة، التي نلناها من أجدادنا وأسلافنا المقدسين، وباشروا بنهب الموارد التي خلفها الرجال الأتقياء من العصور القديمة، من أجل الانفاق على رجال الدين، ولدعم الفقراء، ولتقديم الضيافة إلى الحجاج، وحصلوا على الفور على الذي طلبوه، وكان إذا ما لجأ انسان من المتضررين أو المسلوبين إلى وسيلة الترافع للقضاء، أو الترافع باسم الامتيازات، قاموا على الفور بتعليقهم، وحرمانهم كنسياً، بوساطة بعض الأساقفة الآخرين، وذلك استناداً إلى التخويل والترخيص الممنوح من البابا، وبهذه الوسيلة، لكن ليس بوساطة الرجاوات، أو الطرائق الشرعية، بل بوسائل استخراج ملوكية عنيفة، سرقوا القوم السذج، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«يتسول الرجل في السلطة بسيف مسلول».

ولقد صار الحال الآن، أنه حيث كان فيما مضى رجال دين نبلاء وكرماء، وأوصياء على الكنيسة ورعاة لها، كانوا قد عودوا أنفسهم على جعلها مشهورة خلال جميع المناطق المجاورة، بوساطة اكرام المسافرين والعناية بهم، وبانعاش الفقراء، صار محلهم رجال منحطين، فارغين من الأخلاق، مليئين بالمكر، وكلاء للضامنين الرومان، وتولى هؤلاء الآن الاستيلاء على كل ماهو مفيد، وثمين، ونقلوا ذلك إلى بلدان أجنبية، أي إلى سادتهم، الذين كانوا يعيشون على الإرث اللذيذ للمسيح، ويتباهون باستحواذهم على أملاك الآخرين، ثم كان أن شوهد حزن عميق من القلب، منه تبللت وجنات القديسين بالدموع، وسمعت التنهدات والشكاوى، وقد انفجرت عالياً، وتضاعفت، وقال كثيرون وهم يتنهدون:

«لقد كان من الأفضل أن نموت على أن نشاهد معاناة وآلام شعبنا، وقديسينا»، الويل لانكلترا، التي كانت من قبل رئيسة البلدان، وسيدة الشعوب، ومرآة الكنيسة، وأساس الدين، هي الآن ملقاة تحت الجزية، وقد

داس عليها بالأقدام أناس وضعاء، وسقطت فريسة إلى أناس أخساء، لكن الذنوب المتنوعة للانكليز هي التي جلبت أسواط العذاب هذه وأنزلتها على أنفسهم، وذلك من خلال غضبه، الذي بسبب ذنوب الشعب، مكّن المنافقين من الحكم، وجعل الطغاة يتولون السلطة.

موت جون بريين والراهب جوردان

في هذا العام انتزع من بيننا جون بريين المشهور، وصاحب الذكرى الخالدة، الذي كان من قبل ملك القدس، والذي كاد أن ينال السلطة الامبراطورية للاغريق، والذي كان من الممكن له أن ينهي حياته بشكل سعيد، وبسلام في ضوء الشمس، لولا أنه جلب على نفسه عداوة فردريك الكبير، امبراطور الألمان.

وفي هذا العام أيضاً، فيما بين الشتاء والربيع، غرق الراهب جوردان، رئيس طائفة الرهبان المبشرين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته، وواعظاً مشهوراً، وجاء غرقة في العاصفة، عندما كان مبحراً على طول السواحل الجنوبية لبلاد المغرب، من أجل أن يربحهم للرب بوساطة وعظه، وجلب جسده إلى اليابسة، من قبل بعض الذين غرقت سفنهم، لكن الحظ انتشلهم من الموت، وجاء ذلك نتيجة جهد كبير ومخاطر، وعهدوا به إلى القبر بشكل مشرف وبطريقة معروفة، وعندما كانوا يتولون دفن جسده المقدس، شموا رائحة طيبة رائعة، صدرت عن ملابسه، وكذلك عن شخصه، واستمرت حلاوتها تطيب أيديهم لوقت طويل.

وحوالي ذلك الوقت نفسه جرى تطويب القديس دومينيك، وتسجيله في لائحة القديسين، وكان راهباً من طائفة المبشرين.

موت رتشارد ثاني أسقف لدرم يحمل ذلك الاسم

وفي تلك الآونة، وبالتحديد في الخامس عشر من نيسان، مات رتشارد، الأسقف الثاني لدرم، الذي حمل ذلك الاسم، وكان رجلاً صاحب تقوى

لا نظير لها، ومعرفة عميقة، وقد حكم بقوة ثلاث أسقفيات كنسية هي، أسقفيات: شيستر، وسالسبري، وأخيراً أسقفية درم، التي ترأس عليها بكل ازدهار، وحررها من دين ثقيل، جناه رتشارد الأول، الذي كنيته مارش، والذي كان متقدمه، وكان مبلغ المال الذي سدده الأسقف المذكور، أي رتشارد الثاني، ودفعه في سبيل تسوية الدين، قد أحصي بأنه تجاوز أربعة آلاف مارك، ومعزو أيضاً إلى الثناء الأبدي عليه، أنه حوّل كنيسة سالسبري، من مكان فارغ وجاف في جوار قلعة الايرل، إلى موقع موائم، وأرسى بمعونة بعض المهندسين المشهورين، الذين جمعهم من بلدان نائية، أساسات كبيرة، ووضع هو شخصياً الحجر الأول، لرفع شأن هذا العمل وفي سبيل تقدمه، لم ينفرد به الأسقف بل قدم له يد المساعدة عدداً كبيراً من النبلاء مع الملك أيضاً، ولهذا قال أحد الحكماء:

«قدم الملك المال، والبنّاء يديه،

والأسقف العون، وهكذا وقف البناء».

وإلى جانب هذا أوجد مؤسسة للراهبات في تارنت Tarent وأعطاها إلى الملكة، وهناك اختار مكان دفنه، وعندما اقترب موعد مغادرته، ورأى الأسقف بأن الساعة قد اقتربت بالنسبة له للعبور من هذا العالم، قدم موعظة خاصة إلى جمع من الناس، وأخبرهم بأن موته بات وشيكاً، وفي اليوم التالي اشتد مرضه، فودعهم جميعاً، وسأل المسامحة من كل من أذنب بحقه، وجمع في اليوم الثالث أسرته، والذين كان مرتبطاً بهم، ليقدم لهم بشكل خاص الحماية، ووزع فيما بينهم ماراه من الضروري توزيعه، وأعطى إلى كل واحد استحقاقاته، وبعدما رتب أموره كلها، وأكمل أعماله كلها بتوزيع موائم وصحيح، قام بتوديع رفاقه واحداً واحداً، وأخيراً قدم الصلاة التعبدية لمنتصف الليل، وأنشد البيت التالي:

«سوف أتمدد أنا بسلام وسوف أنام»، فوقع نائماً بالرب بكل سرور، ثم

قـام رهبـان درم، بعـدمـا استمـدوا العـون من عليين، بانتخـاب رئيسهم تومـاس، وكـان رجـلاً متـديناً ومستقيماً، وجعلوه أسقفهـم والراعي لأرواحهم.

سبب عودة الامبراطور من إيطاليا

وفي هذه الآونة، وجـد الامبراطور فـردريك أن مـؤمـرات أعدائـه قـد سببت عودته إلى ألمانيا، وتركه لحملته التي كان عازماً عليها، وأن ذلك كان لغير صالح سمعتـه، لأنه كان قد أرغم على رفع الحصـار، والانسحاب من ميلان، وقام بإجـراء بحث لمعرفة من الذي تسبب له بهذه الإعاقـة، فوجد أن دوق النمسا قد أثار فوضى داخلية في ألمانيـا، وأنه كان السبب في إعاقته عن قصده، فهاجمه، وحرمه من أراضيه، ومن مراتبه، وثرواته.

الامبراطور يستدعي للاجتماع جميع أمراء المسيحية

وفي العـام نفسـه، استـدعى الامبراطور فـردريك بوسـاطة مـراسلين خاصين، ورسـائل امبراطورية أمراء المسيحية الكبـار في العالم، للاجتماع في يوم عيـد ميلاد القـديس يوحنا المعمـدان، في فوكـولور Vaucouleurs الواقعـة على حدود —أو على مقـربة من حـدود— الامبراطورية والمملكة الفـرنسيـة، وهدف الاجتماع هناك كـان بحـث القضـايا الصعبـة المتعلقـة بالامبراطورية، والمتعلقة أيضاً بالمملكة، وبما أن الملك الفرنسي رعى مشاعر الشكوك حـول هذا المؤتمر، توجه في الوقت المحـدد إلى المكان المعين، يحيط به ويرافقـه جيش كبير، كان قـد حشـده لتلك الغاية، وبذلك ضرب مثـلاً مرعباً وخبيثاً للآخرين، لأنه ذهب للبحث في مسائل السلام، وفق الطريقة نفسها التي يزحف بها عندما يريد قتال أعدائه، وقدم ملك انكلترا اعتذاراً منطقيـاً لعدم حضـوره شخصياً، وبعـث سفارة سلميـة، تتألف من بعض الشخصيات الـرئيسية للمملكة، فيها: رتشـارد ايرل كورنوول، أخيـه، مع بعض النبلاء الآخرين، الموائمين للعمل في مؤتمر تحت توجيه رئيس أساقفة

يورك المبجل، وأسقف ايلاي، مع أشخاص آخرين موثوقين، جرى اختيارهم لهذه الغاية، ومع أن أسقف وينكستر، قد جرى اختياره قبل الآخرين، رفض باصرار الذهاب، لكن ليس من دون تقديم سبب معقول، حيث قدم التعليل التالي لتسويغ عدم ذهابه، فقد قال:

«مولاي الملك، لقد تقدمت مؤخراً بشكوى ثقيلة ضدي، ورفعتها إلى الامبراطور، حيث أخبرته، بأنني قمت مع بعض النبلاء الآخرين، بإحداث الاضطرابات في مملكتك، وسواء أفعلت هذا بعدل أو من دون عدل، الرب يعلم، غير انني واثق من أنني حافظت على ضميري في كل مجال، وإذا كانت كلماتك قد وضعت الآن بثقة تفوهت بها من فمك، وأودعتها في رسائلك، وأن تعلن أيضاً أنني صديق مقرب منك ومخلص لك، فهذا سوف يظهر كأمر معاكس، وسوف يسبب لنا معاً، أنا وأنت بعض عدم الاستقرار، وسيسيء إلى سمعتك إلى درجة كبيرة، وبناء عليه، بسبب أن ذلك سوف يظهر مسيئاً لك، أنا لن أذهب بأي حال من الأحوال»، وبرأي كثيرين، أنه أعطى بهذا الرد تعليلاً كافياً عن نفسه، ولدى الفراغ من جميع الاستعدادات، وعندما باتوا جاهزين للاقلاع بهذه الرحلة، ووجهوا برسائل من الامبراطور، قال فيها بأنه لن يستطيع الذهاب إلى المؤتمر، آنذاك، كما سلف وله واقترح، لكن الذي لن يستطيع فعله وقتئذ، سوف —بمشيئة الرب— ينفذه في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، من العام المقبل، وهكذا عاد كل واحد منهم من دون القيام بأي شيء.

وفي هذا العام، في يوم العشاء الأخير، تولى أسقف هيرفورد تكريس القربان المقدس، في كنيسة القديس ألبان، وفي هذه الآونة أيضاً، أغلق جون سكوت، ايرل شيستر حياته، وكان ذلك في حوالي أحد الشعانين حيث دسّ له السم بوساطة زوجته، ابنة للويلين، وتعرضت حياة أسقف لنكولن للوسيلة نفسها، ولكنه استرد بكل صعوبة من بوابات الموت، وفي العام

نفســه، في الأسبوع الذي حلّ قبل أحـد الشعـانين، كانت هناك عـواصف شـديدة، ترافقت مع سقوط برد، كان حجم البردة أكبر من التفاحة، فقتلت المواشي، وتبع ذلك تساقط الأمطار.

وصول أوتو النائب البابوي إلى انكلترا

وفي هذا العام أيضـاً، في حوالي أيام عيد القـديسين بطرس وبولص قدم المعلـم أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان Tullian بمثابة مندوب بابوي، لكن لأي مقصد، فهذا لم يكن معروفاً، وجاء قدومه بناء على استدعـاء من الملك دون معرفة النبلاء، وبناء عليـه شعروا بغضب عظيـم وسخط ضد الملك، وقالوا:

«يتولى الملك الآن منع جميع الشرائع، وقـد حنث بعهده ووعوده، وبذل كل شيء عمله وألغاه، فهـو قبل مدة وجيزة اتحد ذاتيـاً بالزواج من أجنبية، دون استشارة أصـدقائـه ورعاياه الطبيعيين، والآن استـدعى بشكل سري نائبـاً بابوياً ليقـوم بتغييرات في جميع أرجاء المملكة، فهـو ما ان يفتح الطريق أمـامـه حتى سيسعى لاسترداد الذي أعطاه»، وهكذا وفقـاً لهذا الأسلوب أخذت المملكة يومـاً فيوماً، تماشيـاً مع كلمات الانجيل، تنقسم على نفسها، وتعيش في فوضى وباتت مهجورة مخربـة بشكل رهيب، ويقال بأن إدموند رئيس أساقفة كانتربري، قد وجّه اللوم إلى الملك لتصرفه وفق الطريقة التي عمل بها، وبشكل خاص لاستـدعائـه النائب البابوي، عـارفاً بأنه قـد كان قبل وقت طويل السبب في إلحاق أضرار كبيرة بالمملكة، وبإلحاق اجحـاف عظيـم بمكانته، ولكن الملك رفض نصيحته، وكـذلك نصائح الآخرين من مستشـاريـه، ولم يرض بأي شكل من الأشكال الاقــلاع عما نواه في عقله، ولذلك قـدم المندوب البـابوي المذكـور بأبهة عظيمـة، مع سلطان عظيم، وذهـب الأساقفة والكهنة ذوي المكانة حتى الشاطىء لاستقباله، لابل أكثر من هـذا صعـد بعضهم على ظهور القـوارب لتلقيه، واستقبلوه بالهتافات، وقـدمـوا إليــه هدايا ثمينة، لابل حتى في باريس إلتقـاه رسل عـدد من

الأساقفة، وقدموا له أقمشة أرجوانية، وكؤوساً ثمينة، ولفعلهم هذا استحقوا عقوبة جماعية، بسبب كل من الأعطيات، والطريقة التي أعطيت بها، لأنه بالأقمشة ولونها أعطى ذلك مظهراً بأن مكتب النيابة البابوية، ووصول النائب البابوي يلقيان القبول، ولدى وصوله هو لم يتسلم جميع الهدايا التي قدمت إليه، بل بعضها فقط، والذي لم يأخذه أمر بحفظه من أجله، ثم قام بكرم فوزع المناصب الشاغرة والمنافع بين أتباعه الذين جلبهم معه سواء أكانوا مستحقين لذلك أم غير مستحقين، واستقبله الملك شخصياً عند شاطىء البحر، وحنى رأسه حتى ركبتيه، وبعد ذلك استقبله وسار معه وسايره حتى داخل البلاد، وجاء الأساقفة أيضاً، وكذلك رعاة الديرة، وقساوسة الكنائس الآخرين، استقبلوه بكل تشريف واحترام، بمسيرات وموسيقى أجراس، مع هدايا ثمينة، بقدر ماتوفر لديهم، وأكثر مما توفر لديهم.

رسالة فيليب الراهب الدومينيكاني إلى البابا

وفي هذا العام، وصلت أخبار سارة من الأرض المقدسة، بأن واحداً من قادة الهراطقة في المشرق قد تخلى عن هرطقته وأوهامه، وتأثر بالروح القدس، فتحول إلى المسيحية بوساطة الوعظ المستمر والحث التبشيري للراهب فيليب، رئيس طائفة الرهبان المبشرين (الدومينيكان) في الأرض المقدسة، الذي قام من دون تأخير ببعث رسالة حول هذا إلى البابا، وإلى الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى البابا، ليبعث السرور في نفسيهما، بهذه الأخبار المفرحة، ثم إن الراهب غودفري، كتب إلى جميع رؤساء رهبان طائفتي المبشرين (الدومينيكان) في انكلترا وفرنسا يخبرهما بهذه الواقعة بالكلمات التالية:

«إلى الأبوين المبجلين في المسيح، رئيسي طائفتي الرهبان المبشرين في فرنسا، وانكلترا، من الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى صاحب القداسة البابا، أماني الصحة والبهجة في الروح القدس، ليكن معلوماً

لديكما بأن قداسته قد تلقى رسائل من الراهب فيليب، المسؤول الاقليمي في الأرض المقدسة، جاء بها مايلي:

إلى الأب الأعظم قداسة والمولى، وإلى غودفري، الذي هو بموجب الدعوة الربانية الحبر الأعظم، من الراهب فيليب، الرئيس الحقير للرهبان المبشرين، طاعة صحيحة وتقوية في كل شيء:

مبارك هو الرب، الأب لمولانا يسوع المسيح، الذي هو في أيامنا، أب مقدس، الذي أعاد برحمته راعي القطيع، الذي كان تائهاً منذ وقت طويل، لأنه في أيامنا قد أرانا سنة من لطفه، وبدأ يملأ الحقول بالوفرة، ومثل ذلك أعاد إلى طاعتكم، وإلى الاتحاد بالكنيسة الأم، شعوباً قد ضلت منذ زمن بعيد، وابتعدت عن تلك الجماعة، ذلك أنه في هذا العام، قام بطريرك اليعاقبة في الشرق، وهو رجل صاحب علم وصاحب أخلاق، ومحترم في سنه، قد جاء مع جماعة كبيرة، من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والرهبان من شعبه، للتعبد في القدس، وله أوضحنا قواعد الإيمان الكاثوليكي، وبالتعاون مع النعمة اللاهوتية، أحرزنا تقدماً كبيراً، حتى أنه في أحد السعف، في الوقت الذي تنزل فيه بالعادة المسيرات من جبل الزيتون إلى القدس، وعد وأقسم أنه سوف يطيع الكنيسة الرومانية المقدسة، وأنه سوف يتخلى في الوقت نفسه عن جميع الهرطقات، كما أنه قدم إلينا اعترافه مكتوباً بالكلدانية (السريانية) وبالعربية بمثابة دليل أخير، وبالاضافة إلى هذا تبنى لدى مغادرته لباسنا الكهنوتي، وهذا الرجل رئيس على الكلدانيين، وعلى الميديين، والفرس، والأرمن، التي دمّر أراضيهم التتار الآن واجتاحوها إلى حد كبير، وتمتد صلاته بعيداً حتى ممالك أخرى، إلى حد أن سبعين منطقة أخرى هي خاضعة له، فيها أعداد لاتحصى من المسيحيين يسكنون بمثابة عبيد للمسلمين ودافعين للجزية لهم، وذلك باستثناء الرهبان، الذين يعفونهم من الجزية، ووفق الطريقة نفسها فعل رئيسان للأساقفة، كان أولهما أسقف اليعاقبة في مصر، وكان الآخر أسقف

النساطرة في الشرق، وكان لهما حقوق الرعوية على الناس الذين سكنوا في سورية وفينيقية، ونحن الآن أيضاً مرسلون بكل سرعة أربعة من الرهبان إلى أرمينيا، ليتعلموا اللغة، وذلك بناء على رجاء ملح ومستعجل من الملك والبارونات، وفيما يتعلق برجل آخر، هو رأس الذين فصلتهم الهرطقة النسطورية عن الكنيسة —والذي تمتد رعويته في أرجاء الهند العظمى، أي مملكة بريستر جون، والممالك الأخرى التي هي أقرب إلى الشرق— قد تسلمنا عدة رسائل منه، أخبرنا بها بأنه قد وعد الراهب وليم دي مونتفرات، الذي مع راهبين آخرين، كانوا يتعلمون تلك اللغة، ولذلك أقاموا بعض الوقت معه، أخبرنا بأنه سوف يكون مطيعاً، وأنه سوف يعود إلى صدر الكنيسة المتحدة، وأرسلنا أيضاً بعض الرهبان إلى مصر، إلى بطريرك المصريين اليعاقبة، الذين نأوا بالعادة بعيداً جداً، وضلوا أكثر من الموجودين في البلدان الشرقية، ذلك أنهم أضافوا الختان إلى ذنوبهم الأخرى، أي هم مثل المسلمين، ومنه سمعنا مثل ذلك بأنه يرغب بالعودة للاتحاد بالكنيسة، وأنه تخلى الآن عن جميع ذنوبه المتقدمة، ومنع الذين خاضعين له من الختان، ويتولى هذا الرجل السيادة ويخضع له:

الهند الصغرى، واثيوبيا، وليبيا، ومصر، والليبيين والايثيوبيين —على كل حال— ليسوا خاضعين للمسلمين، أما بالنسبة للموارنة، الذين يسكنون في لبنان، فقد كانوا قد عادوا منذ زمن طويل، وهم مابرحوا محافظين في طاعتهم للكنيسة، وفي الوقت الذي نجد فيه أن جميع هذه الشعوب خاضعة لعقائد التثليث وإلى ما نبشر به، فإن الاغريق لوحدهم مثابرون على التمسك بشرورهم، وهم يعارضون في كل مكان، سراً أو علانية، الكنيسة الرومانية، وهم يدنسون قداساتنا وقرابيننا ويطلقون على كل طائفة غريبة عنهم اسم أشرار، أو هراطقة، وبناء عليه عندما رأينا مثل هذه البوابة العظمى مفتوحة أمامنا، وفي سبيل أن تنتشر حقائق الانجيل في الخارج، وجهنا اهتمامنا إلى تعلم لغات تلك الشعوب، ففرضنا ذلك على

كل جماعة ديرية، وبذلك أضفنا جهداً جديداً إلى الجهود القديمة، وهم الآن —بفضل نعمة الرب— يتكلمون ويبشرون بلغات جديدة، وخاصة بالعربية، التي هي الأكثر انتشاراً بين الناس، لكن يالأسف، حدث مع جميع هذا السرور، والبهجة الروحية، التي قامت بيننا، نتيجة لتحوّل الكفار، أن مزج الرب من أعماق قضائه، ذلك ببعض المرارة، بوفاة رئيس طائفتنا، إذا لم نقل بأن وفاته قد تحولت إلى حياة للكفار، لأننا سمعنا من كثيرين ممن كانوا هناك حاضرين، ورأوهم، بأن معجزات كثيرة قد شوهدت هناك، إلى حد أن الميت قد بشر بفعالية أعظم بالمعجزات، مما يستطيع الأحياء بالكلمات، مبارك الرب، من أجل جميع الأشياء، ولهذا أرسلنا ثلاثة مبشرين إلى هؤلاء المسلمين، حتى لانظهر أننا مفتقرون إلى نعمة الرب، وبناء عليه، إن عملك أيها الأب المقدس، هو التجهيز والامداد إلى الذين يجتمعون مع بعضهم، وأن تقدموا السلام إلى أولئك العائدين إلى الكنيسة، خشية أن يحدث فيسقطون من بين ذراعي الحاضنة، فيغدون عرجاناً بالقدمين، وبذلك يكون الحال أسوأ من ذي قبل، لأن بعضهم الآن يعارضون أكثر من ذي قبل الرعوية الممارسة عليهم، وأنا لاأتجرأ على حبس انتباهك بالمزيد من الكلمات، فما هو ناقص وليس فيه كفاية، سيكون بامكان الرهبان الحاملين لهذه الهدايا أن يرووه لك، هذا ومات إلى جانب الرئيس وأتباعه: الراهب جيرالد الكاهن، والراهب ايفان المتحول، وإليك يايسوع المسيح كل الحمد والمجد، وشكراً، وشرفاً، وفضائلاً، وقوة، وعالماً بلا نهاية، آمين، وداعاً»، [وفعل هذه الأشياء كلها هذا الكاثوليكي الجديد، من خلال خوفه من التتار، فقد كان مرعوباً من عنفهم، ولأنه لم يكن قادراً على الحصول على المساعدة من الذين أمل بحمايتهم، لجأ هارباً إلى قربان المسيحيين، وبذلك تلقى مساعدة فعالة وسريعة، وفي أيام الرخاء تخلى عن الإيمان نتيجة لضغط نبلائه— إقحام].

هرطقة النساطرة

وبما أنه كانت هناك اشارة إلى النساطرة أعلاه، اعتقدنا أنه من الموائم أن نقحم في هذا الكتاب رواية عن أوهامهم، ففي بلدان المشرق، هناك شعوب همجية تختلف تماماً عن الاغريق وعن اللاتين، ويعرف بعض هؤلاء باسم اليعاقبة، اشتقاقاً من اسم رئيس لهم ومعلم اسمه يعقوب، كان تلميذاً لبطريرك الاسكندرية، وكان هذان الرجلان قد تعرضا منذ زمن طويل مضى لعقوبة الحرمان الكنسي من قبل ديوسكورس Dio-scorus بطّريرك القسطنطينية، وطردا من كنيسة الاغريق، وهم الآن يسكنون في الجزء الأكبر من آسيا، وجميع المناطق الشرقية، وسكن بعضهم بين المسلمين، وآخرون متحالفون مع الكفار، المحتلين لمناطقهم، أي النوبة، القائمة على حدود مصر، حيث جزء كبير من أثيوبيا وجميع البلدان بعيداً حتى الهند، تحتوي —كما يؤكدون— على أكثر من أربعين مملكة، وكانوا جميعاً من قبل مسيحيين، ذلك أنهم تحولوا إلى العقيدة المسيحية، على أيدي الرسول متى مع الرسل الآخرين، لكن فيما بعد زرع العدو بذور خلافاته بينهم، فأصبحوا الوقت طويل مظلمين بالخطيئة المحزنة والتعيسة، يختنون أولادهم، من كلا الجنسين، مثل المسلمين غير مدركين أن نعمة التعميد، قد أزالت أوهام الختان للجسد، وذلك مثلما تتساقط الأزهار، وتزول، عند التحول إلى فاكهة، الأمر الذي قال عنه بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية: «إن اختتنتم لاينفعكم المسيح شيئاً» [٥/ ٢] وقال أيضاً: «لكن أشهد أيضاً لكل انسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس، قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة» [٥/ ٣ -٥]، ومن ذنوبهم الأخرى، ذنب ليس أدنى من الذنب المذكور أعلاه، هو أنهم يعترفون بذنوبهم، ليس إلى الكاهن بل إلى الرب وحده، حيث يضعون بعض البخور المحترق إلى جانبهم، وكأن ذنوبهم سوف ترتفع إلى الرب في الدخان، وخطيئة هؤلاء الأشقياء ليس من خلال

عدم فهم النصوص المقدسة، ومن ثم الهلاك بسبب سوء الفهم، فهم يخفون جراحاتهم عن الطبيب الروحاني، الذي عمله هو التمييز بين جذام انسان وجذام آخر، وبعد التفكر ملياً حول جريمة الختان، عليه أن يفرض التوبة، وذلك وفقاً للمفاتيح الممنوحة للكهنة والمعهود بها إليهم، بالقدرة على الحل وعلى الربط، وبشكل خاص الصلاة إلى الذين اعترفوا إليهم، وهكذا نجد في الانجيل أن الرب قال للمجذوم: «اذهب واعرض نفسك على الكهنة» وثانية قال جيمس: «اعترف بذنوبك ذنباً تلو الآخر»، وقال سليمان: «لاتستحي من الاعتراف بذنوبك»، ومجدداً إنه وفقاً للعهد القديم، يعترف الكاهن بذنوب الناس على رأس الأضحية، إنما كيف كان بإمكانه الاعتراف بذنوبهم، مالم تكن معروفة، و قد اعترفوا بها إليه؟، ومرة أخرى في العهد الجديد، قال القديس بولص في جزء آخر إلى الرومان: «لأن الإنسان يعتقد بالقلب ماهو صحيح، ويعترف بالفم من أجل الخلاص»، ونقرأ عن يوحنا المعمدان: «لقد عمدوا من قبله، واعترفوا بذنوبهم» ذلك أن الخجل، والشعور باللطف، والتواضع لدى الانسان المعترف هي الأجزاء الرئيسية للتوبة، ويصير الأشخاص —عرضة أكثر لاقتراف الذنب— هم الذين لايرون أنه عملاً صحيحاً أن يبوحوا بذنوبهم إلى الناس، لأنه قد كتب: «إن كل من يخفي ذنوبه لن يكون مستقيماً، لكن كل من يذنب ويعترف بذنوبه سوف ينال رحمة»، والخطيئة الثالثة لليعاقبة المتقدمي الذكر، هي جهلهم البدائي، مثلما ذلك دليل على سوادهم، هو أن عدداً كبيراً منهم يكوون أولادهم، ويضعون علامات عليهم قبل التعميد، وذلك بالضغط بحديدة محماة على جباههم، ويرسم بعضهم على أولادهم علامة الصليب إما على خدودهم، أو على جباههم، ذلك أنهم يعتقدون أنهم يتطهرون بالحديد المحمى، لأنه كتب في انجيل القديس متى بأن القديس يوحنا المعمدان قال عن المسيح: «هو سوف يعمدكم بالروح القدس وبالنار»، وإنه على كل حال لأمر واضح إلى جميع ذوي الإيمان الصحيح، أن إزالة الذنوب تكون بالنار الروحية، أي بوساطة الروح

القدس، وليس بالنار المرئية، لأن الرب أثناء نبوته، غالباً ما لام بني اسرائيل، وأنزل بهم لعنات مخيفة، لأنهم قلدوا الكفار، بأمرهم أولادهم بالمرور خلال النار، وجاء في سفر التثنية على لسان نبيه موسى: «خذ حذرك فلا تقلد آثام هذه الأمم، وينبغي أن لايكون بينكم واحد يتولى تطهير ابنه أو ابنته بقيادتها من خلال النار»، ومن الواضح إلى جميع المسيحيين، أنه لاربنا ولارسله، ولا أي واحد من الآباء المقدسين سمح بمراعاة هذه العادة في الكنيسة، كما أنهم لم يأمروا الناس بالاحتراق وفق هذه الطريقة، ونحن قد رأينا علامات الحرق على أذرعة الذين يقطنون بين المسلمين، وكذلك بين اليعاقبة والسوريين، ذلك أنهم أنفسهم عرضوا بالسماح لشارة الصليب بأن تطبع عليهم، ليميزوا أنفسهم عن المسلمين، باحترامهم لذلك الرمز المقدس، وعندما بحثنا بين الاغريق والسوريين وسألناهم لماذا يزدرون اليعاقبة، ولماذا طردوهم من جماعتهم، أوضحوا بأن السبب الرئيسي قد كان لأنهم انغمسوا في هرطقة ملعونة، وهي الأكثر شراً، بإعلانهم بأن هناك طبيعة واحدة وشخص (اقنوم) واحد في المسيح، والهرطقات من هذا النوع قد حرمت كنسياً وأدينت في مجمع خلقيدونية، وأكد بعضهم وأصروا بشكل شرير، على أن المسيح بعدما اتخذ شكل انسان، لم يوجد في طبيعتين، بل الذي بقي فيه هو الطبيعة اللاهوتية فقط وكان الذي قدم هذه العقيدة الخاطئة هو يوتيخي Eutyches الذي كان راعي دير في القسطنطينية، هذا ويؤكد بعضهم الآن، بأنه من الطبيعتين كانت هناك طبيعة واحدة في المسيح، وكان هناك أسقفان من الاسكندرية، اسميهما: ثيوديوس وغالان، كانا مبدعي هذه الخطيئة، وإنه على كل حال لمن الواضح، أنه وفقاً لطبيعة الوجود الانساني، قد جاع يسوع المسيح، وعطش وتحمل الحاجة إلى أشياء أخرى، وعانى ألماً من الموت على الصليب، ولكن وفقاً للطبيعة اللاهوتية هو جلب الموت إلى الحياة، وقام بأعمال أخرى جيدة، كما قال عن نفسه: «كنت أنا قبل أن يكون آدم» و: «البداية أنا الذي أتكلم إليكم» وقال مرة أخرى: «أنا والأب واحد»،

ولكن في اشارة إلى طبيعته كإنسان قد قال: «الأب أعظم مني أنا» ومجدداً قال عندما كان الكأس يعبر بعيداً عنه: «إنها ليست إرادتي، بل إرادتك التي ستكون»، وبعدما قمت بعملية تقص كاملة تماماً حول اليعاقبة المتقدم ذكرهم، عما إذا كانوا قد أعلنوا عن وجود طبيعة واحدة فقط في المسيح، لم أعرف هل أنكروا وجود غيرها من خلال الخوف من الافحام الجدلي، أو لسبب آخر، ولدى سؤالي لماذا يعلمون أنفسهم باصبع واحد، أجابوني بأنهم فعلوا ذلك بسبب اتحاد الجوهر اللاهوتي، ومع ذلك يشيرون في ثلاثة أماكن إلى الثالوث، أي اهتماماً منهم بالثالوث المقدس واتحاده، وهم يعلمون أنفسهم في أربعة أماكن، على شكل صليب، وكان السوريون (السريان) والاغريق —على كل حال— مضادين لهذا، ولإظهار أهمية الوحدة، التي يؤمنون بها لوحدها أنها الموجودة في المسيح، يعلمون أنفسهم، ويرسمون عليها بإصبع واحد، ويستخدم بعضهم الكتابة الكلدانية (السريانية)، وآخرون العربية، التي تعرف باسم الاسلامية، ويستخدم رجالهم العلمانيون كتابات أخرى ولغات، وذلك تبعاً لاختلاف شعوبهم وبلدانهم، لكن لغة رجال دينهم، التي يستخدمونها في الكتابات اللاهوتية، لاتفهمها الطوائف الدنيا، لأنهم وإن استخدموا اللغة العربية، إنها لاتشابه العربية الدارجة، لكنها لهجة خاصة بهم أنفسهم، لايفهمها السواد الأعظم من الناس.

تواضع النائب البابوي

ولقد تمكن النائب البابوي أوتو، الذي أشرنا إليه من قبل، بالسلوك بنفسه بشكل حكيم، وبلطف وتواضع، وبرفضه إلى حد كبير، الهدايا الثمينة التي منحت إليه، وذلك على عكس العادة الجارية للرومان، تمكن بسلوكه الطيب من تهدئة مشاعر الغضب، التي تكونت ضده، وكذلك التي تكونت عند رجال الدين وعند النبلاء، وكانت مشاعر الكثيرين ضده قصيرة العمر.

تهدئة النبلاء

في المقام الأول، تولى النائب البابوي المذكور، تهدئة بعض النبلاء، الذين لسبب سري لم يحبوه، ووقفوا ضده، وبوساطة قبلة منه ثبتهم بالإيمان، وكان هؤلاء:

بطرس أسقف وينكستر، وهيوبرت ايرل كنت، وغيلبرت باسيت، وستيفن سيغريف، ورتشارد سيوورد، وعدد كبير آخر، كانوا من قبل، لوقت طويل مضى معادين له، وهذه العداوة والكراهية قد وصلت إلى نهاية محزنة في مبارزات عقدت في بليث Blith في بداية الصوم الكبير لهذا العام، فيها واجه فرسان الجنوب، فرسان الشمال، وكانت النتيجة أن فرسان الجنوب تغلبوا على خصومهم، ووقع بعض الرجال من ذوي المراتب من على الطرف الآخر بالأسر، ونجم عن ذلك قتال نظامي بدلاً عن مباراة مبارزة، وفي هذه المنازلة ميّز ايرل بيغود نفسه بين الجميع، وبعد هذا هدّأ النائب البابوي الغضب بين هؤلاء النبلاء، وكتب إلى جميع أساقفة انكلترا للالتقاء به في لندن، في ثمانية القديس مارتن في كنيسة القديس بولص، لسماع مذكرة البابا المانحة له والساندة إليه صلاحيات كاملة بالنيابة البابوية، وفي المكان نفسه للاعداد لخطط من أجل إصلاح الكنيسة الانكليزية، ولعقد مجمع بحضوره.

مقتل فرسان الداوية قرب دربساك

انتشرت في تلك الآونة أخبار محزنة، وعممت الأسى في الأرض المقدسة، فإثر وفاة سلطان حلب، انتهت الهدنة التي كانت معمولة بين فرسان الداوية والسلطان المذكور، فوقتها رغب الفرسان الداوية في توسعة أراضيهم في سبيل كرامة المسيح، لذلك أعدوا العدة للحرب، واقترحوا إلقاء الحصار على قلعة اسمها دربساك Guaseum واقعة إلى الجانب الشمالي من أنطاكية، ونصبوا مخيمهم هناك في سهل معشوشب قرب

القلعة، وعينوا وليم أوف مونتفـرات، الذي كان من أوفرين Auverone وكان الوصي على أنطاكية، قائداً لهم، وعندما اقتربوا من القلعة المذكورة في تعبئة قتـالية، شـاهد ذلك بعض الأسرى الصليبيين الذين كـانوا بين أيدي المسلمين، وكـانوا بالأغـلال، مع بعض المرتدين، ولدى اقترابهم صرخـوا لهم قائلين:

«اهربوا أيها الرجـال الأشقياء، لماذا أنتم مندفعـون نحو دمـاركم؟ إنكم جميعـاً ستمـوتون، ذلك أن أعـداءكم جـاهزون بأعـداد لاتحصى لقتلكم، وذلك بأمـر من سلطان حلب، الـذي نصب كمائن لكم»، لكن الوصي على أنطاكية، وإن كان قد سمع ذلك، قد استخف بتحذيرهم، ودعاهم مرتدين وخونة، وقـام كثير من فرسان الداوية، فقـدروا فرص الحرب، ونظروا إلى العـدد الصغير لقـوتهم، وإلى الحشـد الكبير لأعـدائهم، فنصحـوه بتجنب كمين العدو، حتـى يتمكنوا تماماً من تقـدير قدرتهم القتاليـة، وعلى هذا ردّ عليهم الوصي، بأنه لايرغب بأن يكون معه مثل هؤلاء الناس الخنوعين، في صراع مشكوك فيـه، ولا أن يشـاركـوا في نصر عظيم هو سيناله، ودعـاهم باسم جبناء مزيفين، وبهذه الطريقة المعـاندة —مع أن عدداً قد تخلوا عنه— أثار العـدو وحرضـه على القتـال، لكن الذي حدث هو أن المسلمين كـانوا محتشدين ولـذلك انقضوا عليه قبل أن يتـوقع ذلك، ولذلك كـان غير قادر على تحمل صـدمة القتـال، وخالـف أنظمة الداوية بأن أدار ظهـره وهرب، وهرب معـه بعض الآخرين من أتبـاعه، الذين كـانوا من قبل قد شجعـوا البقية، وسقط في هذه المعـركة أكثر من مـائة من فرسـان الداوية، وثلاثمائة من رجال القسي العقـارة، دون أن نذكر المدنيين الآخـرين، وعدد كبير من الجنود الرجالـة، أما الذين قتلوا من التركمان، فكانوا حـوالي الثلاثة آلاف، وفي هذا الصراع غير السعيـد قتل فـارس داوي مـن أصل انكليـزي، كـان اسمه رينالـد دي أرغنتون Argenton وكـــان هو الحامل للعلم في ذلك اليوم، لكنه لدى سقوطه، مثله مثل الآخرين الذين سقطوا، ترك نصراً كان

هو الأكثر دموية إلى أعدائه، لأنه دافع عن العلم بدون كلل حتى قطعت ساقاه وذراعاه كما أرسل وصيهم وحده قبل أن يقتل حوالي ستة عشر من الأعداء إلى الجحيم في الأسفل، دون أن نحسب الذين جرحهم بشكل مميت، ووقع هذا الصراع البغيض في شهر حزيران.

إرسال ثيودوريك رئيس الاسبتارية لمساعدة الأرض المقدسة

عند سماع الداوية والاسبتارية الساكنين في البلدان الغربية بهذه المصيبة، أعدوا أنفسهم للانتقام لدماء إخوانهم التي سفكت في سبيل المسيح، وأرسل الاسبتارية رئيسهم ثيودوريك، وكان ألماني المولد، وكان فارساً بارعاً جداً، وأرسل معهم مجموعة من الفرسان مع تابعين مأجورين، ومبلغ كبير من المال لمساعدة الأرض المقدسة، وبعدما فرغوا من جميع ترتيباتهم، انطلقوا من بيتهم في كلاركنول Clerkenwell في لندن، وساروا بنظام جيد، مع حوالي ثلاثين ترساً غير مغطاة، ومع رماح مرفوعة، وأمامهم علمهم، خلال وسط المدينة، نحو الجسر حتى ينالوا مباركة المشاهدين، وحنوا رؤوسهم مع قلنسواتهم نحو الأسفل، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات الجميع.

عودة الامبراطور إلى إيطاليا مع جيش كبير

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، قام الامبراطور بعدما قمع الاضطرابات التي تفجرت في ألمانيا، وتمكن من تهدئة جميع الفئات هناك، بالدخول إلى ايطاليا مع قوة كبيرة، وقرار بأن يستخدم جميع الوسائل للانتقام للأضرار المضاعفة، التي غالباً ما أنزلها به سكان ميلان، لأنه عندما عاد قبل وقت قصير إلى ألمانيا، أثناء حدوث الاضطرابات الداخلية، التي أثارها دوق النمسا من أجل دماره، ولدى سماع أهل ميلان بخبر تراجعه، قاموا وكأنهم يطاردون الامبراطور بحقد شديد، فقتلوا بشكل وحشي أتباعه، الذين وضعهم في القلاع التي نال تملكها في ايطاليا، وبذلك أثاروا

يومياً غضب الامبراطور، وبناء عليه، ولكي لاينال تهمة عدم الطاعة، قام بمراسلة البابا مراراً وتكراراً، برسائل تضرع، وبعدة رسل خاصين، فتوسل إلى البابا شخصياً بحكم كونه رأس الكنيسة، ليقدم له المساعدة في الحصول على ميراثه، وبانزال العقوبة بسكان ميلان، للأضرار المضاعفة التي ألحقوها به، ولاجتثاث الهرطقة من كل مدينة سيئة السمعة في إيطاليا، ولاسيما أن واجب كنيسة روما، إذا ما صمت البقية، أن تقف ضد وقاحة مثل هؤلاء الناس.

ولدى سماع البابا بهذا، تظاهر بإخفاء نفسه، وسار نحو روما، وكأنه كان هارباً من أمام الامبراطور، لأنه كان غير راغب —أو غير قادر— بمساعدته، واستقبله الرومان بسرور، متصورين أنه منذ ذلك الحين فصاعداً، لن يتخلى عنهم، ويسافر بعيداً، كما فعل من قبل، لأنهم وجدوا أنهم عانوا أثناء غيابه، الذي استمر حتى الآن عشرة أعوام، من خسارة كبيرة في المال.

الحرب بين الامبراطور وبين الميلانيين

ولدى سماع الميلانيين بقرب وصول الامبراطور، الذي أثاروه إلى غضب مسوغ، عملوا جميع الاستعدادات، التي أمكنهم عملها، من أجل الحرب، فقد زودوا أبراجهم بالمؤن، وجعبهم بالسهام، وجهزوا بالسلاح الذين ليس لديهم أسلحة، ولذلك عندما صار الامبراطور قريباً مع جيشه الكبير، الذي قيل بأن تعداده قد تجاوز مائة ألف رجل، بالاضافة إلى المرتزقة المسلمين، وبعدما سار فصار على بعد زحف يوم عن المكان، خرج سكان المدينة مع حلفائهم من دون انذار، في صفوف قتالية، للتصدي له، ونصبوا مخيمهم حتى يتقرر يوم المعركة، وكان معهم حشد عدده حوالي خمسين ألف رجل، ونصبوا رايتهم حيث بدا الجيش أنه الأقوى، ولدى رؤية الامبراطور لهذا، جمع مستشاريه، وشجعهم بالخطبة الحربية التالية:

«انظروا كيف تجرأ هؤلاء الميلانيون الوقحون على الظهور أمامنا، وشرعوا بإثارتي أنا الذي هو مولاهم وتحريضي على القتال، وهم كما ترون أعداء الاستقامة والكنيسة المقدسة، وهم يتحملون وزر ذنوبهم، اعبروا النهر —لأنه كان هناك نهر بينهما اسمه أوغليو Oglio — وانشر رايتي أيها الحامل لها، وارفعوا عالياً نسري المنتصر، واشهروا أنتم يافرساني سيوفكم المرعبة، التي غالباً ماغمستموها في دماء أعدائكم، وأنزلوا انتقامكم بهؤلاء الجرذان، الذين تجرأوا في هذا اليوم على الخروج من جحورهم ليتنازلوا مع رماح الامبراطور الروماني».

ولم ينالوا أي تأخير، لأن الميلانيين انقضوا على الفور على العساكر الامبراطورية، وقاتلوا المسلمين بحماس، ذلك أنهم كانوا أول من تصدى لهم، وفي وقت قصير قتلوهم جميعاً، وعزموا على اقتراف مذبحة مماثلة ببقية الجيش الذي تصدى لهم، ولدى رؤية الامبراطور لهذا ومعه نبلائه الشجعان الذين لايقهرون، ألقوا بأنفسهم كتلة واحدة على الأعداء، وبذلوا كل طاقتهم، فصدوا حملاتهم، وعندما رأى سكان المدينة —من الجانب الآخر— أنها مسألة حياة أو موت، تبادلوا تشجيع أحدهم الآخر، للمحافظة على شجاعتهم، وقاتلوا الأعداء بشجاعة أكبر، وغرزوا سيوفهم البراقة في أجسادهم،وحوّلوا الهجوم إلى معركة هي الأكثر دموية، فقد سقطت أعداد كبيرة من على الجانبين، وامتلأ الهواء بصراخ الجنود المتصارعين، وبأنين الذين كانوا يموتون وبتصادم الأسلحة، وبصهيل الخيول، وصراخ راكبيهم وهم يحثونهم على الاسراع، وغالباً ماعلت أصوات قرع الحديد مثل الصواعق، وأخيراً، وبعد عدة حملات دموية من على الجانبين، أصبح الميلانيون، غير قادرين في ذلك اليوم على تحمل ثقل المعركة، والاستمرار بالقتال مدة أطول، لذلك تراجعوا نحو مدينتهم، عازمين على معاودة القتال في اليوم التالي، وبعثوا برسالة إلى الامبراطور، بأنهم سوف في الصباح الباكر من اليوم التالي يجربون بكل تأكيد حظ

الحرب، وهم وقتها سينالون النصر أو عدوهم، تبعاً لإرادة رب الحشود، حتى لاتبقى عقولهم معذبة مدة أطول بسبب التعليق أو التأخير.

ولدى سماع الامبراطور بهذا عقد مؤتمراً، وكان بحكمة وحذر يرغب في قمع غضب أعدائه، مؤثراً ذلك ومفضلاً له على متابعة القتال المشكوك به بشكل غير حكيم، وعلى أن يعهد بنفسه وبأتباعه المتعبين إلى حظ الحرب غير المؤكد، لأن مذبحة كبيرة وقعت بين صفوف النبلاء من على الجانبين، ستظل موضع نواح وبكاء لأجيال مقبلة، لكن الميلانيون نالوا الحظ الأسوأ في القتال، لأن الامبراطور قد أخذ ثلاثة آلاف منهم أسرى، وذلك من مختلف مراتب أهل المدينة، وذلك إلى جانب قتل عدد لايحصى من عامة الجند بحد السيف، يضاف إلى هذا، نصب كميناً بعد ذلك، فأسر ثلاثمائة من النبلاء، واستولى على رايتهم، واعتقل عمدتهم، ابن دوج البندقية، الذي هو بالحري سقط في المعركة، وقتل أيضاً كثيراً من النبلاء الآخرين، وسقط أسقفهم أيضاً، إما أثناء القتال، أو أخذ أسيراً، والحقيقة المؤكدة، هو أنه لم يترك أحداً، ليقدم أية رواية عنه.

وأمر الامبراطور منذ ذلك الحين باغلاق جميع الطرقات والمعابر حول المدينة، وبحراستها بدقة، وباغلاق المخارج والمداخل العائدة للتجار والفلاحين، بوضع حراس هناك ليلاً ونهاراً، وبهدم الجسور، وبحراسة الطرقات، وكانت الغاية من هذه الوسائل اضعاف قوى أعدائه الثائرين وتدجين وحشيتهم، وأصبح سكان المدينة الذين رفعوا كعبهم ضد الرب يائسين، ولايثقون بالرب، فرفعوا المصلوب في الكنيسة من كعبيه، وأكلوا الجسد في اليوم السادس من الاسبوع، وفي الصيام الكبير، وانغمس كثيرون في هذه المتاهة من اليأس في جميع أرجاء ايطاليا، وكانوا يشتمون ويجدفون، ومن دون احترام لوثوا الكنائس بالقاذورات، التي هي غير جديرة بالذكر، ولوثوا المذابح، وطردوا الموظفين اللاهوتيين، واستولى وقتذاك الرعب والارتعاد على مدن ايطاليا، وجاءت أعداد من السكان إلى الامبراطور يقدمون هدايا ثمينة، لكي لايتورطوا بفاجعة مماثلة، وسلموا أنفسهم

ومدنهم واستسلموا إليه، وأعطوه أيديهم اليمنى معاهدين، وتواضعوا متعظين بأمثولة الآخرين الذين عانوا وتألموا، وهكذا تمكن الامبراطور قبل منتصف الصوم الكبير من احكام قبضته على جميع ايطاليا، وذلك إلى جانب بولونا Bologna وأربع مدن أخرى هي التي لم تمتلك الوسائل للمقاومة، وكان جميع رجال الدين في بولونا مرعوبين خائفين على أنفسهم، لأن الامبراطور كان قد أخبرهم في السنة الماضية وأمرهم بالمغادرة بسلام، وقد رفضوا طاعة أوامره.

سخط نبلاء انكلترا ضدّ الملك

في الوقت الذي كانت فيه هذه الوقائع جارية في مناطق ماوراء الألب، اعتمد الملك هنري الثالث على نصيحة شريرة، ووثق بها، على عكس ماقضى عليه واجبه، أو المنفعة له، فنأى بنفسه عن نصيحة رعاياه الطبيعيين، وأصبح متصلباً عنيداً ضد الذين يرغبون به الخير، وضد الذين يتطلعون نحو منفعة المملكة، فقد أدار شؤونها، مع اصغاء قليل، أو معدوم لنصيحتهم، وكان في سبيل أن يمتلك بعض الحجج الماكرة من أجل استخراج المال منهم، أعلن بناء على قسمه، في المؤتمر الذي دعا إليه النبلاء من مسافات بعيدة، بأنه كان معدماً بلا مال، وأنه كان في وضع كبير العوز، ولذلك التمس بكل إلحاح منهم أن يمنحوه جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من أموالهم وأملاكهم في جميع أرجاء انكلترا، حتى يمكن دعم كرامته، أي كرامة الملك، وكرامة المملكة بطريقة أعظم تشريفاً، ولكي توسع المملكة على أسس أكثر رسوخاً، وقد انزعج النبلاء كثيراً لدى سماعهم هذا، ورأوا كثيراً من الأجانب يسمنون على ممتلكاتهم، وقد ضعفت المملكة بسبب الفقر، وقد أحاقت بها مخاطر مضاعفة مراراً، وكان بعد كثير من المناقشات فيها تواضع الملك بنفسه، ووعد أنه منذ ذلك الحين فصاعداً سوف يلتزم بنصائحهم من دون تردد، وجرى منحه الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، لكن ذلك لم يكن من دون صعوبات كبيرة.

وصدر الأمر بعد ذلك بجمع هذا الجزء، وبتقدير ليس وفقاً للتقدير الملكي، بل وفقاً للتقدير العام، وأن لايوضع في الديرة والقلاع، حسبما جرى الاعداد من قبل وتقرر، وأن لاينفق بناء على تصرف النبلاء، لكن قام الملك من دون أخذ مشورة أي واحد من رعاياه الطبيعيين في مملكته، فأعطى المال إلى الأجانب لينقل إلى الخارج، وأصبح هو مثل انسان مسحور، إذا لم نقل إنه أصبح من دون عقل، ولذلك تفجرت الشكوى بين الناس، وازداد سخط النبلاء حماوة وشدة.

الايرل رتشارد يلوم الملك

وكان رتشارد، ايرل كورنوول، وأخو الملك، أول من طلب الملك للاستجواب، ولامه بحدة للخراب الكبير الذي لحق بالمملكة، وكان هو سببه، وأعلن أنه يقوم يومياً، بوساطة عذر جديد، بنهب نبلائه، وأتباعه من البارونات، من ممتلكاتهم، وكل ماأخذه منهم، وزعه بشكل غير معقول، بين هؤلاء الذين كانوا يتآمرون ضده، وضد ممتلكاته، وأضاف الايرل بأن الملك قد جمع موارد كبيرة، وجبى في أيامه مبالغ ضخمة من المال، وأنه لم يكن هناك لارئاسة أساقفة، أو أسقفية، باستثناء: يورك، وباث، ووينكستر، هي ليست شاغرة في أيامه، وذكر الشيء نفسه فيما يتعلق برعاة الديرة، والكونتيات، والبارونيات، والادارات، والوكالات الأخرى، ومع ذلك فإن خزينة الملك، التي يتوجب أن تحتوي قوة المملكة واستقلالها، لم تشعر قط بأية زيادة.

واستمر الملك في رفضه لنصيحته، وكذلك لنصائح رعاياه الطبيعيين الآخرين، وازداد من سيء إلى أسوأ في جنانه الذي شعر به، وألم به، وعهد بنفسه كلياً إلى إرادة الرومان، وبشكل خاص إلى النائب البابوي، الذي أرسل خلفه بشكل غير حكيم، حتى أنه ظهر وكأنه يعبد حتى خطواته نفسها، ذلك أنه أعلن أيضاً، أنه لايستطيع بالعلن أو بالخفاء ترتيب أي شأن من شؤون المملكة، أو إحداث أي تغيير أو تبديل من دون موافقة مولاه

البـابا، أو النائب البـابوي، ولذلك مـن الممكن القـول أنه لم يكن ملكاً، بل تابعاً للبـابا، وبهذه التصرفات وأمثالها من المساوىء، أخـرج الملك ونبذ من قلوب نبلائه، وكان لديه أيضـاً مستشارين رجالاً غير مشهورين، ولايمكن الوثوق بهم، وقد قيل بأنهم كـانوا المحرضين له على هذه الأفـاعيل، ونتيجة لذلك كـانوا مكروهين إلى أبعـد الحدود من قبل النبـلاء الانكليـز، مع أن أصـولهم جـاءت من المملكة نفسهـا، وكـان هؤلاء: جـون ايـرل لنكـولن، وس. S ايرل ليسـتر، وغ. G وكان من رهبان الداوية.

النائب البابوي يسمّـن نفسه على الأشياء الطيبة لانكلترا

وقـدمت في الوقت نفســه، هدايا ثمينـة إلى النائب البـابوي، من خيـول صغيرة لركـوب السيـدات، وأوعيـة جميلة، ومـلابس ناعمـة ومضـاعفـة الحيـاكـــة، ومختلف أنواع جلـود الحيـوانات البريـة، وأمــوال، ولحوم، ومشروبات، وعندمـا بدا لأسقـف واحـد، هـو بطرس أسقف وينكستر، ووضح بأن النائب البـابوي مزمع على إمضـاء الشتاء في لندن، أرسل إليـه خمسين رأسـاً من الماشية، ومـائة عبـوة من القمح، وثمانية دنان من الخمـرة الصـافية ليـدعم نفسـه بها، وقـدم له آخرون هدايا ممـاثلة، تبعاً لقـدرتهم، وللوســائـل التي توفــرت لديهم، ولكـن النائب البــابـوي لطّـف الشره الرومـاني، ولم يقبل جميع الهدايا التي قـدمت إليـه، وقـد تقبل بعض الهدايا وتسلمها عن رضـا، وبملامح مشرقة، واضعـاً في ذهنه الملاحظة الفلسفية التي تعزى إلى افلاطون قوله:

«أن تتسلم جميـع الهدايا التي منحت إليـك، فـــذاك شره، وأن لاتتسلم شيئاً، فذلك ازدراء، ولكن أن تتسلم بعض الهدايا، فتلك صداقة».

الملك يدعو كونت بروفانس إلى زيارته

وفي الوقت نفســه توسل الملـك بحـرارة إلى كـونت بروفـانس —والد الملكة— بالرسائل، وبالرسل المتتـابعين، لكي يوافق فيقدم إلى أرض ختنه،

وليحمل وهو عائد بعض ماله معه أثناء رجعته، ومن المعتقد أن المال الذي استخرجه الملك كجزء من ثلاثة عشر جزئاً، كان من أجل التوزيع عليه وعلى آخرين من مثل هؤلاء الناس، واقتنع الكونت بحب الكسب، وجاء بناء على الدعوة، ولم يعق بأي إغراءات أو هدايا من الفرنسيين، مع أن الملك كان متزوجاً من ابنته الكبرى، لكن قبل أن يصل إلى البحر، ثارت حرب داخلية في مناطق بروفانس، ولذلك عاد مسرعاً، ولدى سماع الملك هنري بذلك أرسل إليه ألف مارك ليغطي بها نفقات سفره، وليشتري تجهيزات عسكرية من فرنسا.

لقاء في يورك بين ملكي انكلترا وسكوتلندا

وكتب في العام نفسه الملك إلى نبلائه ليجتمعوا بحضرته وبحضرة النائب البابوي في يورك، في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، للبحث في بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، وتوجب على ملك سكوتلندا أيضاً القدوم إلى ذلك المكان لمقابلته، بناء على دعوة له من الملك ومن النائب البابوي، بغية الاعداد لشروط من أجل السلام بينهما، وأنه بفضل نعمة الرب يصبح من الممكن تسوية جميع الخلافات بينهما وإنهائها، وأن يكون كل واحد بينهما راضياً بتسلم ماهو حق له، وبعد وصولهما إلى هناك، تم الاتفاق على أن يتسلم ملك الاسكوتلنديين ٣٠٠ Librates [١٥,٦٠٠ acres تساوي الأكره الواحدة حوالي الأربعمائة متر] من الأرض في مملكة انكلترا، دون السماح ببناء قلعة عليها، وعليه أن يقدم الولاء إلى الملك، كما يتوجب إبرام معاهدة تحالف بينهما، وأن عليه أن يقسم على العمل باخلاص نحو ملك انكلترا، وأن يحافظ على المعاهدة، وكان المرجو أنه بهذه الوسائل إنهاء جميع الشكاوى والادعاءات من جانب ملك سكوتلندا، ولدى إلحاح النائب البابوي وتعبيره عن رغبته بالذهاب إلى مملكة سكوتلندا لفحص الشؤون اللاهوتية هناك مثلما فعل في انكلترا، أجابه ملك الاسكوتلنديين قائلاً:

«أنا لاأتذكر قط أنني رأيتُ نائباً بابوياً في بلادي، ولم تكن هناك حاجة قط لدعوة واحد إلى هناك، الحمد للرب، وليس هناك الآن أية حاجة لواحد، لأن كل شيء يسير على مايرام، كما أنه لم يسمح لأي نائب بابوي بالدخول إلى تلك المملكة في أيام أبي، أو أيام أي احد من أجدادي، وأنا لن أسمح بذلك مادمتُ قادراً على فعل ذلك، وبما أن التقارير قد تحدثت عنك بأنك رجل صاحب قداسة، إنني أحذرك، إنه إذا صدف ودخلت إلى أراضي، أن تسير بكل حذر، خشية أن يحدث لك أي حادث، لأنه يسكن هناك أناس متوحشون، ليسوا تحت السيطرة، وهم متعطشون يسعون وراء الدماء البشرية، وهؤلاء أنا لايمكنني تدجينهم، وإذا مارغبوا بمحاربتي، فسأكون غير قادر على منعهم، ولربما سمعت مؤخراً أنهم أرادوا محاربتي وطردي من مملكتي»، ولدى سماع النائب البابوي هذا، لطّف رغبته وشوقه إلى دخول اسكوتلندا، ولم يترك جانب ملكه، أي جانب ملك انكلترا، الذي أطاعه في كل شيء، لكن أحد الطليان، وكان من أقرباء النائب البابوي، بقي مع ملك اسكوتلندا، وأبقاه هذا الملك معه، وذلك حتى لايظهر أنه متمرد تماماً، وشرفه بمنحه رتبة الفروسية، ومنحه بعض الأرض، وهكذا إرفض المؤتمر، وعاد الملك مع النائب البابوي إلى الجنوب.

استعدادات النائب البابوي الكبيرة من أجل عقد مؤتمر

ومع اقتراب موعد عقد المؤتمر، أمر النائب البابوي بوضع كرسي فخم في مكان مرتفع، وأسنده فوق ألواح طويلة، وقد أمر بتشييده لنفسه في الجزء الغربي من كنيسة القديس بولص في لندن، ثم إنه أرسل رسائله إلى جميع قساوسة انكلترا، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، يأمرهم أن يجلبوا —أو أن يرسلوا— رسائل توكيل عن ديرهم أو هيئة كهنتهم، وكذلك بأسمائهم، بأن كل شيء سوف يقرره النائب البابوي في المؤتمر، ينبغي أن يصدقوا عليه من على الجانبين، وبناء على هذه الدعوة قدم جميع قساوسة انكلترا الذين هم تحت سلطان

نيـابته البـابوية، مع أنهم تعـرضوا لكثير من الضيق والتعب في أجسـادهم، ومثل ذلك عانت خيـولهم، لأن فصل الشتاء كان قـد اقترب حلوله، ومعه أنواء عاصفة وقاسية.

عاصفة ريح ثقيلة ومدمرة

وكان من بين الذين قدموا إلى ذلك المؤتمر واحد اسمه المعلم وولتر بروز Pruz وكـان كـاهناً وقـد أعلن للجميع بأن جميع الكـواكب مقبلة على الاجتماع معاً، تحت برج واحـد من الأبراج هو برج الجدي، وسوف يسبب هذا هياجاً عظيماً بالعناصر، ولسوف يثير عـواصف ثقيلة من الريح، وتنبأ أن دماراً هائلاً سيكون بين الحيوانات، خاصـة القرنية منها —التي ندعوها مـاشية أو قطعـان— وهذا سوف يتبع الزوابع، وأضـاف مازحـاً: «ربما لن تكون بشراً لهم قـرون»، أي «من الأسـاقفـة»، ولم تكن توقعـاته هذه كلهـا فـارغـة من الصحـة، لأنه حـدث فجـأة، عندمـا كـانوا مجتمعين في كنيسـة القديس بولص أن اهتزت بشكل مفاجـىء، بسبب تلك العاصفة الشديدة من الريح، فـاستولى رعب شـديد على الجميع، وبشكل خـاص على النائب البابوي، وفي ليلة عيد القـديسة سيشيليا Cecilia حدث أيضاً أنه عندما كان القمـر في ربعه الأول، أن انتشرت غيوم سوداء بشكل غـريب، شكلها مثل برج، وقد ظهرت في الجزء الغربي من السماء، وبدأ الرعد يزمجر، وشرع البرق يرسل ببريقـه، وثارت الريح، وخلال تلك الليلة كلهـا واليوم التـالي كـانت هناك عاصفـة ثقيلة ترافقت مع ريح هائجـة ما من أحـد يتذكـر أن مثلهـا قد وقع من قبل، واستمـرت هذه العاصفـة لمدة خمسة عشر يومـاً أو أكثـر من دون انقطاع، واقتلعت أشجـار البلوط من جـذورها، وسقطت، وسقطت الأبراج والأبنيـة أرضاً، أو أنها اهتزت، وهكذا بـدا أن الأنواء قد اتحدت في سبيل اقلاق الانسان.

الاجتماع والإعدادات للمؤتمر

مع أن رجـال دين انكلترا، قـد اجتمعـوا في كنيسـة القـديس بولص في

لندن، في اليوم الأول المحدد من أجل عقد المؤتمر، والذي كان اليوم الذي جاء بعد ثمانية القديس مارتن، لم يظهر النائب البابوي، لأن الأساقفة سألوه أن يمنحهم ذلك اليوم لفحص الترتيبات التي اقترح عملها، وللتداول حولها، حتى لاتتعرض مصالحهم لأضرار أعدت سلفاً، ووصل في اليوم نفسه فرسان مسلحون مع حوالي المائتي جندي، كان الملك قد زوده بهم بناء على التماس عظيم منه، ووضعهم في كمين، لأنه كان حذراً من جانبه، لأنه قد قيل بأنه قد حرض ضد الذين لديهم عدة مصالح وموارد، وبشكل خاص ضد اللاشرعيين، وقد ظهر هو شخصياً في الكنيسة المذكورة في الصباح الباكر، وكان ذلك في حوالي الفجر، وكان حشد رجال الدين الذي كان ينتظره كبيراً جداً، إلى حد أنه وجد صعوبة بالغة في الدخول إلى الكنيسة، وبعدما تمكن من شق طريقه، عرض نفسه في أثوابه الحبرية، أي في المدرعة الكهنوتية، والقبعة اللاهوتية المغطاة بفراء جلود مختلف أنواع الحيوانات،ثم لبس تاجه الأسقفي، وسار بعد ذلك بشكل مهيب مع رئيس أساقفة كانتربري ويورك، وحمل في المسيرة الوقورة الصليب وشموعاً مشتعلة، وكانوا يرددون الابتهالات، وصعد فوق الدرجات إلى مقعده، الذي —كما ذكرنا من قبل— قد أعدّ له وسط أبهة كبيرة، وصار الآن أكثر أبهة بالزرابي وبالمظلات، ثم أجلس رئيس أساقفة كانتربري نفسه على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، لأن خلافاً نشب بينهما حول ترتيبات الجلوس، وتقدم رئيس أساقفة يورك بطلب للحصول على اليمين، الذي ادعاه لنفسه، وبناء عليه بعدما تمت قراءة: «أنا راعي جيد» من الانجيل، وقراءة بعض المجموعات المناسبة، وفقاً للعادة، من قبل النائب البابوي نفسه، وبعد غناء مزمور: «أقبل ياروح القدس، أيها الخالق أقبل»، تولى رئيس أساقفة يورك —كما ذكرنا أعلاه— تقديم طلبه، ومع ذلك أخذ رئيسا الأساقفة مقعديهما إلى جانب النائب البابوي، حيث جلس رئيس أساقفة كانتربري على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، ورغبة من النائب البابوي، وقتها في إنهاء الخلاف من دون إلحاق ضرر بأي

واحد من الجانبين، قال لهما: «تظهر على مرسوم صاحب القداسة البابا، اصبع القديس بطرس على يمين الصليب المطبوع في وسط المرسوم، في حين تقف إصبع القديس بولص على اليسار، لكن بين هذين القديسين العظيمين، لم ينشب قط أي خلاف، لأنهما متساويين بالشهرة، إنما بسبب أنه [بطرس] يعد في وضعه حامل المفتاح، ولأنه رئيس الرسل، وكذلك بسبب مكانته الكاتدرائية، وأولويته في دعوته، يبدو أن صورته جديرة بالوضع على يمين الصليب، لكن بما أن بولص آمن بالمسيح الذي لم يره، فإن صورته أيضاً جديرة بالوضع على اليمين، لأنه قال: «بورك الذين لم يروني» الخ، وهكذا بما أن صاحب النعمة رئيس أساقفة كانتربري، هو الأول على كل انكلترا، وهو الرئيس على كنيسة كانتربري الأعظم شهرة، وكذلك على كنيسة لندن، التي هي عائدة إلى القديس بولص، يتوجب ليس من دون سبب في أن يوضع على الجهة اليمنى»، وفي الأيام التالية للمؤتمر، جلس رئيس أساقفة كانتربري على الجهة اليمنى للنائب البابوي، وجلس رئيس أساقفة يورك على الجهة اليسرى، وفي اليوم الأول من المؤتمر، جرى ارسال: جون ايرل أوف لنكولن، وجون فتز— غيوفري، ووليم دي ريل Raele وكاهن القديس بولص، باسم الملك، ليمنعوا النائب البابوي، نيابة عن الملك المذكور والمملكة، من الوصول إلى أي قرار في المؤتمر، يحط من مكانة التاج الملكي والمملكة، وفي سبيل الأخذ بهذا الطلب ومراعاته، بقي وليم دي ريل هناك، وعليه الدراعة الكهنوتية والقبعة، وغادر الآخران وذهبا، وفي اليوم نفسه، وعلى مسمع من جميع الحضور، طلب سيمون رئيس شمامسة كانتربري من النائب البابوي، أن يقرأ الترخيص بنيابته التي عهد بها إليه صاحب القداسة البابا،على مسمع من جميع الفئات، وهذا فعل، وفي اليوم نفسه، جرت أيضاً قراءة أحد الامتيازات —بناء على طلب من الملك— فيما يتعلق بأعياد القديس إدوارد والاحتفال بها في جميع أنحاء انكلترا، وبناء على أمر من البابا جرت قراءة واحد آخر يتعلق بمسألة تطويب القديسين: فرانسيس ودومينيك، وكان النائب البابوي قد سمع

عندما كان في مقر إقامته، بأن عدداً من الأشخاص، الذين في حوذتهم منافع في عدة كنائس، وكانوا نبلاء من حيث النسب والممتلكات، وغير شرعيين، والذين كان قد أتى على ذكرهم في قرار المؤتمر، قد غضبوا، وخططوا لعمل خياني ضده، ولذلك تمت حراسته، وكان قد تولى ذلك أيضاً بعض النبلاء من المؤتمر، وهم: غ. G ايرل مارشال، وج. J ايرل لنكولن، وكذلك بعضاً من حاشية الملك، وقد سلحوا أنفسهم بالسيوف، وبالأسلحة الأخرى، لحمايته وحماية أتباعه.

وأثناء المؤتمر عندما جرى نشر القرار ضد هؤلاء الذين لديهم عدة منافع، والذي كان معاكساً لقرار مجمع اللاتيران، وقف وولتر دي كانتلوب، أسقف ووركستر، في وسطهم، وانتزع تاجه الأسقفي، وخاطب النائب البابوي على الصورة التالية:

«أبانا المقدس، مع أن عدداً من النبلاء لهم نسبهم مثلنا، بين أيديهم عدة منافع، هم لم يتسلموا بعد إعفاء، وبعضهم من الذين تقدموا بالسن، وقد عاشوا حتى الآن بشكل مشرف، يظهرون الكرم إلى غاية قدرتهم، وقد وزعوا الصدقات بأبواب مفتوحة، يبدو أنه من الصعب جداً لمثل هؤلاء الناس، أن يحرموا من منافعهم، وأن يتحولوا إلى وضع فقر مهين، وبعض الشبان، الذين هم شجعان وجريئين، سوف يعرضون أنفسهم إلى أعظم المخاطر، قبل أن يسمحوا لأنفسهم أن تحرم من منافعها، مع الاحتفاظ بمنفعة واحدة، وحول هذا أنا يمكنني أن أحكم على نفسي، فقبل دعوتي إلى تلك المرتبة، كنتُ قد قررت في قرارة نفسي، أنني إذا كنتُ سأخسر منفعة واحدة، تحت حجة مثل هذا المرسوم، إنني سوف أخسر الجميع، وبناء عليه، نخشى أن كثيرين مازالوا حتى الوقت الحالي محتفظين بمثل هذا القرار، وبناء عليه، بما أن عدداً كبيراً جداً لهم علاقة بهذه القضية نلتمس من قداستكم، من أجل سلامتكم، وكذلك من أجل سلامتنا، أن تستشيروا البابا، قبل الوصول إلى قرار من هذا النوع، يضاف إلى هذا بما أن

مرسومكم بشأن الطائفة الدينية التابعة للقديس بندكت يمتد بسلطته لينال بالدرجة نفسها الجميع، إنه سوف يكون صعباً بالنسبة لأعداد كبيرة، بسبب فقر بيوتهم، وبشكل خاص من أجل الراهبات، لأنهن ضعيفات، وعاجزات عن مراعاة هذا المرسوم، ولذلك إنه من الضروري إظهار لين مخلص في فرض هذه الإجراءات القاسية، وبناء عليه، نحن نرجوكم فيما يتعلق بهذه القضية أن تستشيروا قداسة البابا».

وفي رد عليه، قال النائب البابوي، إنه إذا ماأراد رجال الدين، أي رئيسي الأساقفة والأساقفة الماثلون أمامه، أن يكتبوا إلى البابا حول هذه القضايا، هو عن طواعية سوف يوافق على ذلك، ويتوجب أن يكون معلوماً، أنه بسبب أن بعض الناس، قد فهموا من النائب البابوي، أن مراسيمه سوف تكون ثابتة ونافذة فقط أثناء أيام نيابته للبابا، قام المعلم أثو Atho وكان واحداً من كهنته، قام بناء على طلبه ووقف في وسط الاجتماع، وفتح كتاب التراخيص، الذي كان سجلاً لقداسة البابا، وذلك في سبيل زيادة سلطاته، ولكي يتمكن بشكل فعال أكثر من تحقيق آرائه ومشيئته، وقرأ هذا المعلم بصوت مرتفع بعض القرارات والمراسيم، التي أراد النائب البابوي أن يبرهن من خلالها بشكل واضح ومتميز صدقه، والتي أظهر من خلالها بوضوح، أنه بعد مغادرة النائب البابوي المذكور، فإن قراراته وقوانينه، سوف تكون ثابتة باستمرار، وينبغي أن لانتجاوز ذكر، أنه في اليوم الأول من المؤتمر، اتخذ رئيسا أساقفة كانتربري ويورك مقعديهما، كما ذكرنا من قبل، أولهما من على يمين النائب البابوي وثانيهما من على يساره، وبعد قراءة قوله في الانجيل «أنا الراعي الجيد»، وبعد قراءة المجموعة المتعلقة بذلك، جرى فرض الصمت على الحشد المجتمع، وطلب منه الالتزام بالنظام، فرفع النائب البابوي صوته، وكأنه كان صوت بوق، وبدأ حديثه، وافتتح ذلك بالنص التالي:

«في وسط العرش، وكان هناك من حوله أربعة حيوانات، مليئة بأعين

من الأمـام ومن الخلف»، وقلد رجل الدين ذاك أثناء قـداسـه، الحيـوانات بأعين من الأمـام وأعين من الخلف، حتى يكون حـذراً أثناء إدارة الأعمال الدنيـوية، وكـان حـذراً أثناء إدارة الشـؤون الروحيـة، جـامعـاً الماضي مع المستقبل، وبعـد القـداس أمـر بقراءة مـراسيمه بشكل متميز، وبصـوت مرتفع، وقد أمر بمراعـاة ذلك بدقة، وقد رأينا أنه من الموائم ذكر هؤلاء في هذا الكتاب.

افتتاح المؤتمر الذي عقد من قبل النائب البابوي أوتو في كنيسة القديس بولص في لندن

«منذ أن غدت القداسة هي بيت الرب وقسيسيه، لقد قيل من قبل الرب «كنت أنت مقدس لأنني أنا الرب مولاك مقـدساً»، ويسعى مكر عدو بني البشر لإزالة القـداسة أو لتـدميرها كلياً، وبناء عليـه أعاق في أمـاكن كثيرة الكنائس من أن يجرى تكريسهـا والقسـاوسـة من تأدية واجبـاتهم بشكل صحيح، بافساد أخلاقهم وتدميرها، وكذلك حياتهم بالسلوك ضد أحكام وقوانين الآباء المقدسين، وإعاقة كل شيء فيـه فائدة لتقدم الديانة المسيحية، وبناء عليـه ينبغي أن نقـاوم بكل إخـلاص وبيـد قـويـة ذلك من قبل جميع المسيحيين، ولأن نضعف مسـاعيـه، يتـوجـب استخـدام قـوى جـديدة ومتجددة، مثلما فعل اسحق حين سعى أولاً إلى تجديـد الآبار، التي حفرها أبناء إبراهيم، وهي التي كـان رجـال فلسطين قد طمـوها بالتراب، وبعـد ذلك حفر آباراً جـديدة، وأخيراً نحن أوتو، الذي بفضل النعمـة الإلهية هو كـاردينال شماس للقـديس نيقـولا في سجن تـوليـان، ونـائب الكرسي الرسولي، قد جرى إرسـالنا من قبل الكرسي المذكور، بوظيفة نائب بابوي، إلى بلاد انكلترا، لنقوم معتمدين على العـون الرباني، وعلى الأساقفة، وعلى المجمع الحالي، بتقـوية أوضـاع كنيسـة انكلترا، وبإصـلاحهـا، باستثناء المؤسسـات الشرعية الأخـرى، التي نتمنى ونرغب، المحـافظة عليهـا بكل احترام، وقد رأينا بوسـاطة السلطات المعهودة إلينا، أنه من الموائم، مـراعاة

بعض المراسيم، التي أمرنا بفرزها وترتيبها تحت بعض العناوين».

تكريس الكنائس

«من المعروف أن تكريس الكنائس، قد استقى أصله من العهد القديم، وروعي هذا وطبق في العهد الجديد، من قبل الآباء المقدسين، وهذا ماتتوجب مراعاته بمزيد من التقوى والدراسة، لأنه في الماضي كان ذبح الحيوانات فقط من أجل تقديمها قرابين، لكن صار فيما بعد القربان السماوي هو الحي والصحيح، لأن الابن الوحيد للرب يقدم لنا على المذبح على أيدي الكهنة، ولهذا رسم الآباء المقدسون بحكمة أن مثل هذا الواجب، ينبغي عدم ممارسته —إلاّ في الأوضاع الضرورية— في أماكن غير مكرسة للرب، وعلاوة على ذلك، كما رأينا نحن بأنفسنا، وسمعنا من كثيرين، بأن مثل هذه الطقوس مزدراة، أو على الأقل مهملة من قبل بعضهم، ولهذا نجد كثيراً من الكنائس، لا بل حتى كاتدرائيات، قد بنيت منذ القديم، ولم يتم تكريسها بعد بزيت التقديس، ولذلك إننا نرغب في أن نضع حداً لهذا الاهمال، وإننا نرسم، ونوجب أن يجري تكريس جميع الكاتدرائيات، والكنائس الديرية والأبرشيات، التي بنيت، واكتملت، في بحر عامين من قبل الأساقفة أصحاب المناطق الأبرشية الواقعة هذه المؤسسات تحت سلطانهم، أو من قبل أشخاص آخرين مخولين من قبلهم، ووفق هذه الطريقة، وخلال الحقبة الزمنية نفسها، سوف يفعل الشيء نفسه مع الكنائس التي سوف تُبنى من جديد، ومن أجل أن لايجري إهمال هذا المرسوم الصحيح، أو أن يناله الإهمال، نحن نرسم بأن أية كنيسة لن يجري تكريسها خلال عامين من موعد انتهاء عمارتها، سوف يجري تعليقها من شراكة المؤمنين، وبالتالي تمنع من إجراء القداس حتى يجري تكريسها، مالم يتوفر سبب معقول يحول دون ذلك، وبالاضافة الى هذا، إننا نمنع بكل دقة بموجب المرسوم الحالي جميع رعاة وقساوسة الكنائس من الاقدام على تدمير الكنائس القديمة المكرسة، تحت دعوى بناء كنائس أكثر جمالاً